
ساحر الكتب
ساندرا سراج
إلى ما لا نهاية
رواية
دار دوّن



«الحُب مثل الموت؛ وعدٌ لا يُرد ولا يزول»

محمود درويش

إهـــــداء

- إلى كُل من تمنى الوصول حتى وصل، فتخلَّى.

- إلى الوحدة، وذلك الصمت المؤذي الذي يعج بالضجيج، إلى البحر، إلى النجاة والغرق، إلى الطائرة التائهة التي غيرت مسار قلبي.



- إلى الشمس التي أظن أني وحدي أترك جلدي تحتها يحترق، وأغمض عينيَّ بلا مُبالاة، ألا تحترق هي!
- إلى الروايات التي أتركها في منتصف الطريق؛ لأني أضعف من أن أودعها للأبد، رُبما ليبقى لدي أمل أن أعود لها يومًا ما، أحتضن أبطالها بشوقِ الغائب، وأجعلهم يقصُّون على ما فاتني.. ولكن ألا يختفي الشغف!
- إلى من أحبوني فأحببت نفسي.
- إلى كُل قلب فوق شرايينه يحمل ندبة مكتوبًا عليها اسمي، عزيزي.. أنت تستحق.
- إلى كُل الأغاني التي تذكرني بكُل ما أدّعي أنني نسيته.
- إلى أحب الأشياء لروحي، وأكثرها ضررًا.

مالك

أتأملها وأنا أفكر..

كيف لها أن تكون عفوية وعشوائية الجمال هكذا؟ بشعرها الأسود الغجري وعينيها السوداوين، وكأنك حين



تنظر إليها تُحلق في الفضاء الخارجي، سواد تسبح بداخله، منعدم الجاذبية.. تحلق فيه إلى اللانهائية.. سواد سيؤدي حتمًا لهلاكك..

* * *

تلك الحورية الشيطانية ملكة البحار السبعة، يوجد بها سحر يجعل كل من يراها يهيم بها عشقًا، أظن نيتشه قابلها في عالم آخر حتى قال: «المرأة فخ نصبته الطبيعة» فكيف إذًا بامرأة هي الطبيعة.. بضحكتها تشرق الشمس، وبعبوسها ينشقُّ القمر، بخطوتها تقوم الزلازل، وبغضبها تهُب العواصف والأعاصير، وبدموعها تهطل الأمطار، وبحزنها تفتح أبواب الجحيم لتحرق مَن آلمها، وبرضاها تسخر لك الأرض وما عليها؟

أتذكر يومًا رأتني أقرأ كتابًا كعادتي، جلست بجواري كطفلة صغيرة بفضولٍ لم تستطع إخفاءه وهي تسألني عنه، وطلبت مني أن أقرأ لها بصوتٍ مسموعٍ.. من الصعب أن تقول لها: «لا»، حتى لو أردت ستتحول الحروف على شفتيك لـ»نعم»، وكأن في عينيها تعويذةً تحميها من ألم الرفض.. هي التي رفضت الكثير.. يرفض سحرها أن ينقلب عليها.

ضمت قدميها لصدرها وجلست كطفلة تنتظر صوتي



الذي نطق بحروف غسان كنفاني كُل ما لم أستطع قوله:

«أنتِ في جلدي وأحسك مثلما أحس فلسطين.. ضياعها كارثة بلا أي بديل، وحبي شيء في صلب لحمي ودمي، وغيابها دموع تستحيل معها لعبة الاحتيال.. لقد وقع الأمر ولا فرار، العذاب معك له طعم غير طعم العذاب دونك، ولكنه دائمًا عذاب جارح.. صهوة تستعصي على الترويض.

إنني أكره ما يذكرني بك؛ لأنه ينكأ جراحًا أعرف أن شيئًا لن يرتقها.. أنا لا أستطيع أن أجلس فأرتق جراحي مثلما يرتق الناس قمصانهم.. ويا لكثرة الأشياء التي تذكرني بك!».

شعرت وكأنني فقدت صوتي، أحبالي الصوتية تخلت عني وكأنها ملَّت الاعتراف لها بعشق يُدميني بلا فائدة، لأنظر لها وهي تبتسم وتدندن بمزيكا تعرف جيدًا أني أحبها، وكأنها تكافئني.. أغمضت عينيَّ قليلًا مع دندنتها ونبرة صوتها وابتسامتها التي أستطيع سماعها، وتذكرت أساطير الحوريات.. إنهن يجذبن ضحاياهن بصوت غنائهن ويسألن الرجال مجموعة من الأسئلة إذا أجابوا عنها بطريقة صحيحة يطلقن سراحهم، وإن أخطئوا يقتلنهم.. كُنت أنتظر سؤالها الذي سيحدد مصيري لتقول



وكأنها ترحمني من انتظاري وتأهبي المستمر: «كيف تراني؟».. تعجبت قليلًا فـ«رؤى» ليست بالمرأة التي تنتظر المديح -على الأقل ليس مني- وهذه حقيقة لطالما آلمتني، ولكن للحظات أعطتني أملًا، ولكن أهو أمل حقًّا أم أنه مثل السرطان.. في اللحظات التي يظن فيها المريض وكل من حوله أنه شُفي تمامًا يكون المرض قد تمكن منه ويجعله يلتقط آخر أنفاسه حتى ينقض عليه ويأخذ كل ما تبقى من روح أهلكها المرض؟ لأقرر أنني سأكون في خبث ودهاء شهرزاد التي علقت شهريار بها بامتناعها عنه.. سأتركها معلقة بين الشيء واللاشيء لأستنجد بقول مولانا وأردد:

«إن لي ألف لسانٍ صارمٍ كالسيف، لكنني في وصفك ألكنُ»

وكأن ذلك كان - بطريقةٍ ما - كافيًا لإرضاء طفلتي المدللة، أو رُبما لم تبتلع طُعمي.. رُبما هي الآن تحضر لجريمة قتلي، امرأة مثلها تقتل دون أن تلوث يديها بدماء ضحاياها، تقتل بالغياب.. تجعلك رويدًا رويدًا تفقد كل رغبتك في الحياة فتقرر إنهاء حياتك وأنت على قيدها.. تركتني هي أيضًا معلقًا لا أعلم هل ستطلق سراحي أم ستقتل روحي بتمنعها عني، بفقدان ثقتها بحروفي.. هل



ستسلب مني شرف تسليمي مقاليد حكم مملكتها المُزيف؟.. كم من أحمق ظن يومًا أنه ملكها! «رؤى» مثل الماء لا تستطيع امتلاكها أو حبسها، فقط لك اختيار أن تُساير جريانها وإلا فاضت عليك وأهلكتك.. فهي النجاة وهي الغرق، ألمْ يجعل الله من الماء كل شيء حي؟ وأيضًا جعل منه هلاكًا.. تستطيع أن تكون بين يديك وأنت تظن أنك تُحكم إمساكها وإذ بها تتسرسب من بين أصابعك، تستطيع أن تتنفس منها وبها، ولكن بينك وبين شغاف قلبها ما بين السماء والأرض.. ستشعر بسذاجة العاشق، إنها لك ولكنها أبدًا لن تكون!

مهما أخبرك الآخرون عن مصيرك الحتمي للموت بمملكتها ومن هوائها المُسمم بالعشق الوهمي، وأنك ستكون مجرد ضحية من ضحاياها ستحكي عنك صباحًا وهي تحتسي قهوتها.. ستقبل، مثلما يقول بعض الشيوخ إنك عُرض عليك شريط حياتك جنينًا وأنت قبلت بكُل هذا العبث.

أنا مثلك وافقت، أنا «مالك» وافقتُ على هلاكي على يد ملاك الجحيم.

اليوم عيد مولد الرسامة «رؤى العابد» الخامس والعشرين وافتتاح الجاليري الخاص بها..



كان من المُفترض أن نعلن خِطبتنا اليوم ولكن كان لديها مشاريع أفضل وأكثر تميزًا لتحتفل بها مع تاريخ مولدها المُفضل الذي تنتظره منذ كانت طفلة، ولم أعارضها.. أنا الذي أحبها منذ أعوام وأنتظرها كجندي في ساحة حرب ينزف وينتظر أن ينجده أحدهم وهو يصارع الموت.. فهل سأمانع إن قررت إنقاذي مبكرًا قليلًا بمعدات بدائية وهي التي احتفظت بأحدث المعدات لما هو أقيم مني بقلبها؟.. أعلنا خطبتنا منذ أسبوع، طوال تلك الأعوام لم أستطع رؤية امرأة غيرها.. هي التي تعلمت أولى خطواتها بين يديَّ، لم يكن يُخيل لي أنها ستخطو فوق قلبي وتترك قدماها الصغيرتان آثارًا تصبح مثل البئر التي تبتلع كل خطاياها، آثارًا تجعلني مثل الأب الذي يغفر لأنه يتذكر تلك اللحظات الصغيرة.. وبالطبع لم يكن يُخيل لي أنني سأعلمها المشي حتى تركض مني ما تبقى من عُمرنا، ملكتني منذ كانت طفلة؛ أنا الذي أبلغ من عُمري الحادية والثلاثين.. لم تستطع امرأة في هذا العُمر المليء بالخيبات والأماني أن تنتشلني من عِشق كان يقتلني سرًّا.. ولكن اليوم هي معي.. أو هكذا أوهم نفسي.

رؤى، أطلقت أمها عليها ذلك الاسم حين رأت رؤيا بأن جنينها الصغير يحمل مفتاحًا ضخمًا، هل كان هذا



مفتاح قلبي أو رُبما مفتاحًا واحدًا يصلح لكُل القلوب قد منحه القدر لها دون غيرها؟ ربما لهذا يحبها كُل من يراها! ورُبما هو مفتاح قلبها.. قلبها الذي لم يفتح لي بابه يومًا، قلبها الموصد بإحكام ومفتاحه فقط بيدها.

لماذا أكتب؟

هل لأجلها أم لأجلي؟

هل لأكتب عن تلك الأسطورة الحية، أم لأكتب عما تعبث به تلك الطفلة الشقية بقلبي؟

تلك الطفلة التي تركض حافية القدمين فوق شرايين قلبي وتستوطنه، تلك المرأة التي غزت عقلي بمعتقداتها.

فبطريقةٍ ما يُمكن التخلص من استيطان القلب، أما غزو العقل فلا خلاص مِنه.

فالله يقلب القلوب، أما العقول والعقائد فهي راسخة.

- مالك.

- نعم؟

-لا، قصدي مالك، إنت كويس؟.. واقف بعيد ليه ولَّا شكل الوحي نزل عليك وبتكتب.

- بفكر.

- ف إيه؟

لأقول لها وكأنني أنفي تهمة التفكير بها التي اعتدت



إنكارها:

- في ماهية العشق.

لتسألني:

-ووصلت لإجابة؟

«إنه بحر العدم، وقد كسرت للعقل هناك القدم»

لم أكن بحاجةٍ لأشرح لها مقولة مولانا ولا لماذا أفكر بها؛ فهي تعرفني بمقدار ما أعرفها وأكثر قليلًا، فالعاشق رغمًا عنه يعطي مفاتيحه لمن يحبه، يسلمه مقاليد مملكته كما نترك نسخة احتياطية من مفتاح المنزل بداخل شالية الزرع المجاورة للباب وكأننا جميعًا لا نعلم تلك الحيلة، وكأن أحدهم لن يحاول البحث بداخلها ليدخل منازلنا خلسة؛ حتى يدخل حين نحاول نحن رفض استقباله وكأننا نعلن تمردنا من جهة ولكن نعطيهم الحل من جهة أخرى.. أنا الذي لم أعلن تمردي أبدًا ومع ذلك تركت لها مفتاحًا احتياطيًّا في كل مكان؛ عساها تحاول زيارة قلبي يومًا على غفلةٍ مني.

تغيرت ملامحها، ابتسمت بألم.. تحاول جاهدة إخفاء ما لا تشعر به ، ولكني لن أيأس.. مُحال أن يجد أحدهم من يُحبه دون مقابل، يحبه في أوقاته العصيبة ، وبمتقلباته المزاجية ، وبسخطه على العالم دون أن يشعر على الأقل



تجاهه بالامتنان، رُبما تتحول تلك النبتة يومًا ما لعشق.

-تعالَ طيب معايا، أنا قلقانة ومُتحمسة ومتلخبطة و«جميلة» لسة ماجتش.

-متقلقيش.

ثم أخذت يدي، لا أعلم أن كان التعبير الأدق هو: أخذت روحي.. مضت بي ، ومازلت منذ أعوام أحاول فهم كيف بلمسة منها تجعلني مُسيرًا كطفل بين يدي أمه يعلم أنها لن تضلله أبدًا.. كيف تستطيع أن تكون أمًّا وهي ليست بعاشقة؟!.. مُحتالة.

* * *

رؤى

جلستُ بأحد مقاهي وسط البلد، جلستُ بالطابق العلوي.. لطالما أحببت تأمل كُل شيء من أعلى، وكأن الرؤية تختلف.. تصبح بطريقةٍ ما - رغم بُعدها - أوضح وأدق.. وجدتُ أن معظم من حولي هُم عُشاق، وأغلب من بالطابق السفلي أشخاص وحيدون لا يملكون أنيسًا سوى فنجان قهوة أو شاي أحيانًا.. أهذا لأن العشاق عادة



يكونون مُحلقين بسماء العشق فيكون الطابق العلوي أقرب لهم؟ أم لأنه مكان سيصعب فيه رؤيتهم في هذا الوطن الذي يجاهر بكُل الخطايا ولكن يخفي الحُب والعُشاق؟ وربما لهذا عندما يقعون من العشق يتهشمون، وأثناء إجراء عملية استئصال الحُب وطرحه من القلب يفقدون جزءًا من قلوبهم للأبد.. فلا أحد يقوم صحيحًا من السقوط، مثل الأرقام نفقد دائمًا أعشارنا.. ورُبما لذلك مُعظم الوحيدين اختاروا الدور السفلي لأنه أقرب للأرض، للواقعية والمنطق، ولكني لم أكن من العُشاق ورُبما أيضًا للحظات لم أرغب أن أنضم لتلك الواقعية الحزينة الوحيدة وانضممت بالفعل للطابق العلوي، وبقيت أبحث عن مقعد أشعر فيه بالانتماء أنا وقهوتي التي لم أطلبها بعد دون أن أقتحم وأزعج خصوصية من يُمارسون الحُب بالنظراتِ.. جلستُ بجانب رجل يحمل كتابًا، ظللت أتأمله وكأني أريد أن أشعر بالانتماء لأحد سطور كتابه المنهمك فيه، لماذا هو جالس وحده هُنا مثلي.. أنا التي لا أستطيع أن أنتبه لمن حولي بسهولة انتبهت له.. فقط رُبما هي طاقة الطابق العلوي تدفعك للشعور بأي شيء ولكن لم أشعر سوى بأن قلبي يؤلمني، يؤلمني ذلك الشعور بالفراغ القاتل بداخلي وكأني واقعة في مثلث بيرمودا تائهة ولا يستطيع أحد



إيجادي.. أصرخ بصمت المُحارب المُجبر يوميًا أطلب المساعدة ولكن لا يشعر بي أحد، لا يستطيع أحدهم سماع استغاثة صمتي.. أو رُبما لا يتوقع أحدهم أن تكون تلك المرأة القوية العنيدة المغرورة –من وجهة نظر البعض- تُعاني، سألني مالك يومًا: «هل لديكِ قناة دمعية مثلنا؟ هل لديكِ قلب يؤلمك؟» أجبت يومها: «لا» بمنتهى الحزم والسرعة كمجرم يحاول إنكار جريمته أنكرت ألمي.. ما لا يعرفه أن ما كان كُل هذا الجبروت إلا لإخفاء هشاشة روحي..

أتذكر مراهقتي، كانت كل صديقاتي يحاولن محادثة الفتيان ويقعن في عشق المدرسين الشباب، ولكني لم أكن كذلك قَط.. لم ينجح أحدهم في لفت انتباهي، سأعترف.. حتى مالك، وافقت على خِطبتنا لأنني فقدت الأمل في أن أقع في العشق، أن أنظر لأحدهم كما ينظر من حولي لبعضهم البعض، أو حتى كما ينظر مالك لي، على الرغم من يقيني أن الحُب شعور مؤقت أعني: ألن نموت جميعًا في النهاية وقد أهدانا الله على الرغم من ذلك حق الحياة؟ ألن يتدمر ذلك الكوكب يومًا ما وعلى الرغم من ذلك نستمر في تعميره وتطويره أملًا في أنه لن يصطدم بجرم سماوي أثناء فترة تواجد أجسادنا عليه قبل بلوغ البرزخ؟



فلماذا يبخل الحُب علي بشعورٍ رغم مدته الزمنية المحدودة؟ لطالما أخبرتني أمي أن لكل منا نصيب من اسمه.. رُبما لأن اسمي رؤى فلدي رؤية بمدى عبثية وتضليل الحُب فشعر بتهديدٍ مني.. ولكن لكَم رغبت أن يشعر بالتحدي! أن يضعني أمامه في معادلة لا أستطيع حلها، لا أستطيع معرفة ناتجها لأنه يوجد أوكسجين غير مرئي مرتبط مع مادة أخرى لا أعرف ماهيتها.. وحده هو يعلمها.. لا أتوقع تداخلهما في المعادلة.. أن يغلبني، كانت هذه المرة الوحيدة التي رغبت فيها بالهزيمة.. أعلم أن مالك يُحبني منذ كنا صغارًا وعلى الرغم من ذلك كنت أعرفه على كل صديقاتي اللواتي يقعن في عشقه.. فهو شاب وسيم للغاية وكان يدخل في علاقات معهن فقط حتى يقصوا علي مغامراتهم معًا أملًا في أن أغار.. كُنت أعلم كُل ذلك ولكني مهما حاولت لم أستطع، ولكنه لم ييأس، لم يتركني قَط.. حتى حين تركته أنا وقررت ألا أكون أنانية بالقدر الذي يجعلني أعلقه بحبل خفي لن يستطيع العثور عليه أبدًا، لم يرحل، ووقتها شعرت أنه أحيانًا يكون كل ما نحتاجه شخصًا لا يرحل.. مهما باعدت بيننا المسافات والقلوب والعوائق، فقد أرهقني الرحيل والفراق ولكن اليوم هو بداية كُل شيء.



اليوم عيد مولدي الخامس والعشرون.. لطالما تمنيت يوم وجودي لربع قرن على هذه اليابسة البائسة اليائسة، أن يكون يومًا مميزًا.. ولذلك قررت أن أستقبله بأكثر ما أحبه وهو الرسم.. أتذكر في طفولتي في أكثر أيامي سوءًا كُنت أرسم كثيرًا.. أتذكر يوم ماتت أمي بقيت أرسم لوحات.. لم أنم لأيام حتى أرسم فقط لا غير، لم أبكِ ولم أصرخ ولم أتساءل أين ذهبت وأين تلك الجنة وأين الله مثل كل الأطفال.. حاول أبي نزع الألون واللوحات مني بكُل ما استطاع من حنان وقوة وسلطة ولكنه لم يستطع.. أحيانًا لا أستطيع تصديق -حتى الآن- كيف لطفلة أن ترسم لأيام دون توقف وكأني أقايض القدر، أعطيه لوحات لأجزاء منفصلة من الجسم وكأن كُل لوحة في مقابلها جسد أمي الحقيقي، واستمر ذلك الاعتقاد لدي فما زلت كُلما رغبت لشيء أن يحدث أرسم لوحة في مقابله، فقررت أن أفتتح الجاليري الخاص بي في هذا اليوم وكأني أهبه كُل رسوماتي لجعل ما تبقى من حياتي أفضل..

بدأ شغفي بالرسم حين كُنت في السابعة من عُمري، بدأت برسم أشخاص وهميين يلاحقونني في أحلامي.. خفتُ أن أنساهم يومًا فرغبت بتجسيدهم.. ما لا يعرفه أحد



أنني مازلت أرسمهم حتى الآن، هُم أبطالي، لا أعرفهم أبدًا ولكني طالما شعرت أننا مترابطون بشكل ما كأنهم مصدر إبداعي.

رُبما لذلك لا أقع في العشق؛ فأنا بالفعل واقعة في عشق الفن.

ذهبتُ إلى الجاليري، مالك هُنا وكعادته يكتب.. عندما كُنا صغارًا كانت «جميلة» تغني لي ولمالك قصة من وحي خيالها وأرسمها أنا ويكتبها مالك، رغم أنها نفس القصة ولكننا لطالما رأينا الأشياء بطريقة مختلفة.. كان دائمًا يكتب برومانسية حالمة وكأنه من كوكب زمردة، ولكني كُنت أتخيل العكس تمامًا.. كان يرى في رسمي غموضًا وحُزنًا ولكني لطالما رأيته الحقيقة.. فالواقع ليس بذلك اللطف الذي يتخيله.

كانت جميلة هي أكثر من حاول أن يجمع بيننا، وبعد إصرارها قبلت.. مللتُ المقاومة، مللتُ رفضي، مللت إصراره، ومللت إلحاحها..

أنا لستُ واقعة في عشق مالك ولكني أحبه كثيرًا.. رُبما هذا الحُب لا يختلف كثيرًا عن العشق.. فأنا بالنهاية أستطيع أن أحتوي غضبه/ غموضه/ صمته.. أستطيع السماع له لساعات دون ملل، أحب رفقته والضحك معه،



فهو أقرب صديق لي منذ الطفولة.. أحب رؤيته سعيدًا، وهو الآن سعيد لأنه نال مراده، وأظن هذا كُل ما يهم.. فأنا لن أكون سعيدة أبدًا حين يتعلق الأمر بالقلب.. إذًا لماذا على الأقل لا أحاول جعله هو سعيدًا؟

ولكن أحيانًا لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في كم هو مُريب أن تكون مصدر سعادة لأحدهم وأنت لا تعلم للسعادة طريقًا.. يا الله أعطني القدرة على أن أكون لينة القلب رغم ما بداخلي من قسوة، ألا يسبب صدى اسمي غصة بقلب أحدهم؛ أنا التي نسيت كيف يدق القلب دون ألم؟

بدأ الافتتاح وبدأ الناس يتوافدون.. شعرت بأنني أختنق، فأنا رغم فرحتي بوجود عدد كبير من الزوار والأصدقاء والمعارف أكره الزحام؛ الضوضاء والنفاق الناتج عنها.. حقيقة إن مُعظم من بداخل ذلك الجاليري يكنون بعضهم لبعض الحقد والغيرة، ويكاد يكون الضغينة، ولكن لا يكفون عن الكلام والابتسام، ولا بأس ببعض الأحضان والكلام السم المُحاط بعسل.. خرجت لاستنشاق الهواء الخالي من الضحك المُزيف والنفاق والاستمتاع قليلًا بنجاحي.. أغمضت عينيَّ وأنا أتأمل تحقيق حلمي ولكني سمعت أحدهم يتحدث عن لوحاتي



لآخر بالسوء.. شعرت بالغضب ولكني لم أتحرك.. بقيت أتأمله..

كان يقول: معنديش فضول حتى أشوف اللوحات، الفن دلوقتي بقى مجرد وسيلة لأكل العيش.. مبقاش فيه روح.

كان يُدخن.. جسد رشيق طويل ساكن لا يتحرك ولا يعبر عن أي مشاعر، شعره داكن كحروفه المُوجزة وكأنه بنشرة أخبار التاسعة ويجب أن يقول كل ما حدث على مدار اليوم في دقائق معدودة، عينان كانتا بلا روح.. أظن أن رغبت برسمهما فسأرسم فقط حفرتين سوداوين بلا نني وبلا قدرة على الرؤية.. فهو معدوم الرؤية.. على كُل حال لن يؤذيه ذلك كثيرًا.

بقيت أقاوم الرغبة في رسمه ولكني لم أستطع.. تركت الجاليري وذهبت لمكان خلفه وبقيت أرسمه.. رجل ذو لحية سوداء وطويل بجسد رياضي، ولكني لم أستطع رسم كل ملامحه، فقط رسمت ملامح جسده وكأنها حُفرة كونية سوداء تبتلع ما حولها من جمال وبهجة.. ثم جاءت جميلة وبخفة ظل أخذت تحكي لي عن النفاق الذي يحدث بالداخل وعن آراء الزوار في لوحاتي وكم أعجبتهم، ولكني لم أستطع أن أبالي كما ينبغي.. فذلك الغريب وذلك



الخواء الذي بداخله.. لم تجذبني ملامحه ومقتُّه لما قاله عن لوحاتي، ولكني رأيت روحه.. رأيت ذلك الفراغ القاتل واللامبالاة وذلك الصمت، شعرت بصقيع الثلج القابع في روحه، شعرت بطريقةٍ ما أني أتأملني ولكن من الخارج.. توجد معه امرأة رائعة الجمال ينظر لها كل رجل بالخارج الآن، ولكنها حين لمست يديه لم يحرك ساكنًا وكأنها شبح، لم يرتجف جسده.. وكأن حرارة يديها لم تكن كافية لتذويب قلبه المُثلج.. أعتقد أنه لم يكن شغفًا لرسمه بل لرسمي أنا.

انتهيت من الرسمة وركضت حتى أعطيها له دون تفكير ماذا يجب أن أقوله له وأنا أعطيه حفرة سوداء لأخبره أنها هو بتلك البساطة، تركت جميلة خلفي وهي تناديني لا تفهم ماذا يحدث.. بقيت أبحث عنه ولكني لم أجده.. شعرت بخيبة أمل، شعرت بشيء، وبطريقةٍ ما كان هذا يكفي للغاية.

ثم جاءت جميلة حتى تجعلني أرحب بالزوار.. دخلت ووجدته، يتأمل لوحة.. إنها إحدى لوحاتي المُفضلة:

QU'EST-CE QUE L'AMOUR

وقفت بجانبه صامتة أتأمله، كان يتأملها كما لم يتأملها أحدهم من قبل وكأنه رأى بها ما لم يره غيره..



لم أجد نفسي إلا أقول بتحدٍّ:

«لسة شايف اللوحات مفيهاش فن؟».

نظر لي متعجبًا من اقتحامي لصمته وخصوصيته لأقول بتحدٍّ:

-رؤى العابد، الرسامة اللي بترسم عشان الفلوس.

على غير المتوقع، توقعته أن يخجل أو أن يحمر وجهه قليلًا، أن يتلعثم بالكلام.. توقعته حتى أن يصمت ولكنه فقط ابتسم وقال:

-لأ، كُنت غلطان.

وقفت مدهوشة وكُل ما أفكر فيه: مهلًا!.. رجل يعترف بغلطه هكذا بمنتهى البساطة!!

لأقول بتلقائية:

-إيه السهولة دي!

ليضحك أكثر وأخيرًا ينبض بعينيه بريق الحياة قليلًا ليقول:

-مش عيب اللي غلطان يعترف بغلطه، العيب هو المكابرة.. كوني قُلت إني غلطان دا خلاني راجل أكتر في نظرك مع إن دا التصرف الطبيعي الفطري، ولكن التصرفات السيئة للمحيطين بينا هي اللي بتقلل من سقف توقعاتنا ف أي حاجة بسيطة بنشوفها حاجة كبيرة



وعجيبة، وإزاي في كدا مع إن في الواقع أقل من العادي.

قال ذلك بصوتٍ رخيم مُميز ورائحة عطر لم تقابلها حواسي من قبل ممتزجة برائحة التبغ المُحترق، لم أجد نفسي إلا أبتسم له، فرجل مثله يستحق أن تنظر له بانبهار لأنه على الأقل يرى نفسه شخصًا عاديًّا للغاية.

ليمد يده لي ويقول: «يمان».. لأمد يدي وأقول: «رؤى» ثم أواجه أغرب شيء يمكن أن يحدث.

* * *

يمَّان

إنها الثالثة فجرًا، أجلس وحدي أتأمل الفراغ، الوحدة، والموت الذي يحوم حولي وحول مرضاي.. لطالما قالوا إن للهدوء صوتًا، ولكن أظنه ليس إلا صدى صوت عقلك الذي يذكرك بكُل ما تحاول نسيانه، وكأنه ينفرد بك دون أي مؤثرات خارجية قد تعوقه عن انتقام ذاكرته الخفي.. الذاكرة التي ملأتها بروائح، أسماء، حروف وأصوات تركتهم ورحلت حتى يبقى شبحهم يطوف بداخلها أبدًا ما حييت.. تنتقم من تزاحم الأرواح التي قتلتها بغيابك، تنتقم



منك لأجلك.. تذكرك بتلك التي بكيت حتى لا تتركها وبدم باردٍ رحلت ولم تنظر حتى خلفك نظرة واحدة وكأنك كُنت جالسًا مع خيبتك وتُريد الهروب منها، أو خائفًا أن تُصيبك بنظرة منها فتُعيدك إلى ذلك الكُرسي مجددًا لتفكر بطريقةٍ جديدة للرحيل.. لينقذني مني أبو عبده رفيق السهر، حين دخل مكتبي ورأيت وجهه شعرت وكأن الظلام يتنحى جانبًا قليلًا لهالة نور ذلك الرجل، وكأن طاقة الحُب التي بداخله قادرة على إبعاد كُل الشر والظلام.. دخل ليجلس معي كما يفعل دائمًا إذا كُنت مناوبًا بالمستشفى ويحضر لي قهوة وأسمعه أم كلثوم من على جهاز اللاب توب الخاص بي الذي يراه معجزة كونية.. كم هو من الرائع أن تجالس أمثال أبو عبده، فأنا أفتقد للفطرة والبساطة في حياتي.. معظم من بها مُدّعون ويحاولون إبهاري.. ولكني أبدًا لم أفهم لماذا يحاول شخص تغيير نفسه أو على الأقل محاولة إظهار عكس ما هو عليه فقط ليبهر شخصًا آخر.. هذه المحاولات البائسة لإبهار البشر ما هي إلا تأكيد لمقولة: «من السهل أن تعرف كيف تتحرر ولكن من الصعب أن تكون حُرًّا».. فجميعنا نعلم كيف نكون أحرارًا ولكننا بطريقةٍ ما نصبح أسرى للأشخاص والأماكن والمعتقدات والروائح.. نصبح حتى أسرى لفنجان قهوةٍ



ولطاولةٍ في مقهى شهدت حالاتنا المزاجية المختلفة بدايةً بحالتنا المُغيبة العاشقة إلى لحظة ارتطامنا بالواقع ونحن مليئون بالخيبات.. لماذا تحاول الخروج عن فطرتك الإنسانية لتتشبه بالملائكة والذي خلقك يعلم أنك لست مثاليًّا، ووهب نفسه القدرة على المغفرة؟ لماذا تنكر ذاتك وتحاول إثبات لهم ما هو عكس فطرتك؟ ولكن الأهم أن من يدعون المثالية هم الأشخاص الذين مازالوا يبحثون عنها ليقابلوا أحد هؤلاء الحمقى المُدعين لعيشوا حياة كاذبة ويموتوا لحظة اكتشاف الحقيقة.

ارتشفت قهوتي وأنا أتذكر إن كان لدي عملية مُرهقة للغاية اليوم.. كادت الأم تموت بين يديَّ ولكني لم أنكث وعدي لها..

قالت لي قبل العملية: «عندي تلات أطفال هيموتوا من غيري والله، هيتبهدلوا».. أضحك أحيانًا من سذاجة تفكير البشر، أحيانًا ينسون أن الموت قادم لا محالة وله ميعاد لا يمكننا نحن الأطباء تأجيله أبدًا.. أحيانًا أتمنى أن أجعلهم يدركون أنهم لا يستطيعون لومنا على ميعاد اختاره الله ليسترد أمانته.. أنا مُجرد سبب ولكني لم أستطع سوى أن أعِدها بأن كُل شيء سيكون على ما يُرام..

جلست بمكتبي غير قادر على تركها بالعناية المركزة



على الأقل اليوم الأول.. فأنا أعلم جيدًا كيف هي الحياة بلا أم، ماتت أمي حين كُنت طفلًا.. كُنت في السابعة من عُمري أتذكر جيدًا ذلك اليوم.. كانت تخضع لعملية، كانت مريضة للغاية وجعلت الطبيب يعدني أنها ستكون على ما يرام وكأني كُنت أشعر حين يعِدني بأنني أخذت هدنة مع الموت.. ألم يسموا الممرضات «ملائكة الرحمة»؟ فقد جعلت أيضًا «ملاكًا» منهن تعدني ولكنهم لم يفوا بوعدهم، ظننت بعقلي الصغير أن تلك «الملاك» ستتوسط لي عند الله ولكن ذلك اليوم ارتطمت بالحقيقة.. ماتت أمي ومُت أنا.. ولكني بقيت على قيد الحياة.. واكتشفت أن ملائكة الرحمة ليسوا بملائكة حقًّا فقررت يومها أن أكون طبيبًا حتى أعالج كل الأمهات ولا يبقى طفل دون أمه.

واجهتُ الكثير في المستشفى، قابلت الكثير من الأحياء والأموات أيضًا.. لو تعلم كم من الصعب أن تضع يديك بداخل جسد أحدهم وتعلم أنك بمجرد أن وضعت مشرطًا بجسده فإنك أعطيت للموت فُرصة أن يسلب مريضك حياته، وكأن كليكما في تحدٍّ وفقط الله يعلم من سيكسب.. تذكرت أول مريض مات أمامي، كُنت مازلت في سنة الامتياز.. بقيت لأيام لا أنام، ألوم نفسي، حتى إنني بكيت ورغبت في ترك الطب للأبد حتى قال لي



الدكتور إسماعيل عثمان:

-يابني إحنا أسباب، لكُل واحد خلقه ربنا معاد هيموت فيه لا هنقدر نقدمه ولا نأخره.

شعرت بالسكينة المؤقتة، فحقًّا ليس هناك من لديه القدرة على مد عُمر أحدهم أو إنقاصه ثانية واحدة، ولكني أبدًا لم أفقد الشعور بالذنب كلما فقدت مريضًا وأنني ربما كان هُناك ما في وسعي فعله ولم أعلم ماهيته.

إنه الواحد والعشرون من مارس.. يوم عادي ولكن تلك الكوابيس تطاردني.

إن اليوم هو اليوم المائة الذي أحلم فيه بنفس الحلم، ولكن بطريقةٍ متقطعة، أحيانًا تزيد التفاصيل وأحيانًا تقل ولكنه نفس الحلم وكأني في فيلم سخيف لا ينتهي ولا يكف عن التكرار ولا أستطيع جعله يتوقف.

رُبما لأنني أحب الروايات والأدب فحين أكون لا أقرأ يحاول عقلي تصويرها لي أثناء نومي لتسليتي، ولكن لماذا نفس الملامح والأشخاص؟ وأنا متيقن أنني لا أعرفهم ولكني أعلم أن العقل لا يستطيع اختراع شخص كامل من خياله، يجب أن يكون قد رآه حتى وإن لم تنتبه أنت.

أخبرت منير عن هذه الأحلام التي تراودني، فمُنير



هو أقرب أصدقائي منذ الطفولة.. أمه تولت تربيتي بعدما فقدتُ أمي، نحن بمثابة الإخوة ولكنه يقول لي: رُبما هي أحلام جنسية وعقلي يحاول تفريغ الكبت الذي أفعله به.. ولكنه ليس كذلك، أنا أعلم ولكن ليس لدي دليل.

فتوقفت عن أن أحكي له عن أبطالي الغامضين ولكن حقًا وجودهم يفقدني عقلي، فأحلم بهم أثناء نومي وأفكر فيهم أثناء استيقاظي.. رُبما أنا مُت وهذا جحيمي الخاص.

استيقظت اليوم مُرهقًا للغاية، في الحلم كان ذلك الشخص الذي لم أعلم اسمه طوال الأيام السابقة يركض خلف امرأة رائعة الجمال، لا أعلم اسمها ولكن كُل شيء يحول بينهما رغم محاولتهما المُستميتة للقاء، لا يحدث ذلك ولكنها فجأة قالت له:

-إيروس، اقترب الموعد.

استيقظتُ أتصبب عرقًا وكأني كُنت أركض لأميال.. كانت تلك المرأة تتحدث بلغة قديمة للغاية ولكني فهمتها! وكأنها تتحدث بالعبري أو اليوناني أو حتى الهيروغليفي، لا أعلم.. ولكنها لم تكن لغة مألوفة على مسمعي.. دخلت إلى الحمام ووضعت رأسي تحت الماء أحاول إقناع نفسي بأنه مُجرد حلم وأني بخير الآن ولكن لم أستطع تهدئة نفسي.. شعرت بشيء غريب للغاية، هاتفت منير وما هي



إلا دقائق حتى وجدته عندي.. أخذت أقص عليه كُل شيء وأهدده إن قال إنها أحلام البلوغ.. سأقتله! ولكنه كان يبدو عليه القلق على خلاف المرات السابقة وقال ليحاول تخفيف جدية الوضع:

- طيب على الأقل الميعاد قرب، يعني شوية وهتخلص منهم.

ولكن كان بداخلي شعور أنها لن تكون نهاية كُل شيء، بل إنها فقط البداية.

ذهبت إلى المستشفى معه وأنا أحاول الحفاظ على ما تبقى من سلامة عقلي بعد الحلم بنفس الأشخاص لأكثر من مائة يوم في عصرٍ غريب بلغةٍ غير مفهومة ولكني أفهمها أو أشعر بها.. لا أعلم.

دخلت لأجد بسنت بغرفتي تنتظرني.. شعرت أني سأصب كل غضبي بها.. حاولت أن أجعلها ترحل ولكني فشلت، حاولتْ إقناعي بالذهاب إلى افتتاح جاليري ما، وأنها لن ترحل حتى تنال ما تريده؛ ولذلك وافقت أن نذهب معًا إلى ذلك الجاليري فقط لتتركني الآن قبل أن أفقد عقلي تمامًا.

أنا أعرف بسنت منذ كُنا طلابًا بكلية الطب.. قرابة العشر سنوات، هي امرأة حالمة للغاية حتى إنني أتعجب



أحيانًا كيف لها أن ترى الدم ولا تصرخ ولا تفقد وعيها بل هي دكتورة ناجحة للغاية ومتميزة ولكنها مثل الأطفال مشاعرها رقيقة؛ ولذلك لن أتحمل أن أكون سبب جرحها، فبداخلي أشباح بما يكفي، فلن أستطيع تحمل قتل بسنت أيضًا؛ فهي زميلتي وستظل تطوف حولي دائمًا، ولكن أعلم أنه سيكون عليَّ فعل ذلك يومًا ما، ولكنه حتمًا لن يكون ذلك اليوم هو اليوم؛ فأنا مُرهق للغاية ولستُ قادرًا على النقاش، وبالتأكيد لستُ قادرًا على كسر قلب أحدهم ودفن رفاته في ذاكرتي التي تعج بالموتى الأحياء، لن أحمِّل نفسي هذا الذنب اليوم.

يقولون إن التدخين ضار بالصحة، ولسخرية القدر أنا أمنع مرضاي من التدخين.. إنه فعلًا يدمر الصحة ويسبب الوفاة أكثر من أي شيء آخر.. لكني أظن أن الحياة أيضًا تؤدي إلى هلاك الروح.. أما التدخين فهو عامل مساعد ومسرع لزيادة الضرر.

ظننتُ أن اليوم انتهى بعد الكشف على العديد من المرضى وعمل بعض الفحوصات والعمليات ولكن بقدوم بسنت تيقنت أنه مازال أمامي ليل طويل من الادعاء الذي لستُ -حقًّا- قادرًا عليه.. ولكني وعدتها أني سأذهب، وأنا لا أنكث وعدي أبدًا؛ ولذلك أجبرت منير على المجيء



معنا.

وصلنا إلى الجاليري، يبدو كُل شيء فيه أثريًّا.. إنه أقرب للمتحف، وكأن صاحبه نحات وليس مُجرد رسام وأنا أعشق فن النحت.. أشعلت سيجارة ووقفت بالخارج أنتظر انتهاء بسنت من مشاهدة اللوحات، حاولتْ إقناعي بالدخول معها ولكنها على كل حال امرأة ذكية وترى كم أنا مُجبر على أن أكون هُنا الآن فلم تضغط علي أكثر.. جاء منير بعدما تجول قليلًا وأخبرني بحماس عن جمال اللوحات وكيف شعر وكأنه وقع بحقبة زمنية مختلفة ولكني لم أكن بمزاجٍ يسمح لي بمشاهدة لوحات فنان فقط يريد الشهرة والمال، فأخبرت منير بذلك ولكنه أصر على أن أراها بنفسي.. فانتظرت حتى أنهيت سيجارتي ثم دخلت أنا وهو وبسنت التي خرجت لتحاول إقناعي بمشاهدتها، وجعلها منير تشعر أن الفضل يعود لها أني داخل هذا الجاليري الآن..

يرى منير أني بحاجة لامرأة في حياتي، يرى حياتي وحيدة وبائسة وأني مثير للشفقة.. ويظن بسنت هي الخيار الأمثل لأنها معنا بالعمل، وتدرك كم هو صعب أن تكون دكتورًا ومدى انشغالك يوميًا وهي أيضًا كذلك؛ فلن أكون مجبرًا أن أعامل الفطرة المراهقة بالأنثى التي تريد



الاهتمام على مدار اليوم، وهو يعرف أني لستُ هذا النوع من الرجال ولن أكون أبدًا.

حتى وجدت لوحة اسمها «ما هو الحُب؟» بالفرنسية.. وقفت أمامها مبهورًا بالتفاصيل والألوان والأشخاص.. كانت حقًّا من أروع ما رأيت من لوحات.. وكأنها مست بداخلي شيئًا لم أكن أعلم بوجوده.. بقيت أتأملها وكأني أركض داخل ذلك الكهف الغامض ومعي تلك المرأة رائعة الجمال، ملامحها ليست واضحة ولكني لم أبالِ.. أكملتها بخيالي.. وجدت بهذه اللوحة الكثير من التناقضات، الحُب والكره، الخوف والأمان، الهروب والاستقرار.. هذه اللوحة جعلتني أشعر بشيء.. لا أعلم ماهيته ولكني أحببته.

لتلتقط أذني صوتًا عذبًا يأتي من يميني ليقول:

«لسة شايف اللوحات مفيهاش فن؟».

تأملتها للحظات، امرأة قصيرة على كتفها شعر غجري لم تحاول تقييده، عيناها سوداوان واسعتان ويدها مُلطخة بالحبر الأسود.. تنظر لي بتحدٍّ واضح، توقعت أنها الرسامة، وقد كان.. فقالت:

«رؤى العابد، الرسامة اللي بترسم عشان الفلوس»..

لم أستطع منع نفسي من الضحك.. فـ أظن هربت مني



ابتسامة.. أظن أنها سمعتني بالخارج لأجيبها بنبرة اعتذار:

«لأ، كُنت غلطان»..

لأجدها اندهشت كثيرًا من اعترافي وصرحت به بمنتهى السلاسة وقالت:

«إيه السهولة دي!»..

ضحكت لتلقائيتها؛ فأي امرأة أخرى كانت ستحاول منع اندهاشها من الظهور وتحاول جعلي أشعر بالإحراج لما صدر مني من قول جرح كبرياءها، ولكنها لم تفعل.. كانت غاضبة بالفعل مما قلته ولكنها احترمت اعتذاري.

لم أعلم لماذا ولكني حاولت المماطلة معها قدر استطاعتي لتبقى بجواري فهي أقل ادعاءً من كُل من هُم حولي الآن.. رُبما أعجبت بما هي فيه من تحرر، إنها تبدو جميلة لأنها لا تحاول أن تبدو كذلك.. لا تضع من مساحيق التجميل سوى ملمع شفاه رغم أن اليوم هو يومها الكبير وافتتاح الجاليري الخاص بها، ولكنها تقف مرتدية مريول الرسم الخاص بها ويدها ملطخة بالحبر الأسود.. فهي فنانة حقًا لا تهدف الشهرة؛ وهذا ما سيجعلها الأفضل يومًا ما..

رغم علمي باسمها فإنه كانت بداخلي تلك الرغبة



الملحة لأقول اسمي لها كطفل ينتظر أن تسأله المدرسة عن اسمه.. فمددت يدي وأنا أقول: «يمَّان» لتقول: «رؤى»..

ثم حدث ما جعلني أفقد ما حاولت طوال أيام المحافظة عليه.. فقدت عقلي أخيرًا..

وجدت تلك المرأة التي تزورني في الأحلام وذلك الرجل.. عندما لمست يدها وكأننا تجمدنا هكذا لثوانٍ مرت وكأنها قرون وأنا أرى ذلك الرجل يقول:

- آيديا، اشتقتُ لك يا جميلتي.

فجأة نزعت يدها من يدي وكأنها رأت ما رأيته..

سألتها: إنتِي شوفتي حاجة؟

وأنا أحاول الحفاظ على ما تبقى من عقلي أمامها، عساها لم ترَ!

لتقول: لأ، إنت فضلت ماسك إيدي..

ثم رحلت دون أن تنظر وراءها.. وكأنها تركض.

رحلت وأخذت معها ما تبقى من سلامة عقلي.. لم أعلم ماذا فعلت هذا اليوم حتى استيقظت صباح اليوم التالي مُغيبًا، ربما كل هذا مُجرد حلم من خيالي الخصب.. ربما ليس هُناك من يُدعى رؤى ولا آيديا ورُبما هما فقط حلم وسأستيقظ صباحًا بخير.



رؤى

تركت الجاليري مبكرًا بعدما رأيت ذلك الرجل، ورأيت أبطال لوحاتي -التي أحتفظ بها لنفسي وكأنها سر يجب حمايته- مجسدين عندما لمست يدها..

شعرت بأن مكوثي وأنا أرسمهم جعلني أفقد عقلي.. رغبت في الراحة قليلًا أو رُبما كثيرًا ولكني لم أستطع النوم، سهرت معي جميلة قليلًا، وبالطبع لم تكف عن محاولة استجوابي عما حدث، ولماذا رحلت هكذا، ومن ذلك الرجل الذي تركتها راكضة خلفي لأذهب إليه، ولكن فقدت الأمل أن أتفوه بشيء حتى غلبها النوم.. لطالما أخبرني أبي «لا ينام سوى مرتاح البال».. أنا التي لطالما هربت من كُل شيء للنوم اليوم تخلى عني سلطاني المُفضل في أكثر وقت كُنت بحاجة فيه فقط لأخرج مني ولو لساعاتٍ قليلة مليئة بالأرق، ربما رغم كُل شيء لطالما كُنت مرتاحة البال أو لم يعنِني شيء بالقدر الذي يجعلني أغضب سلطاني فيمتنع عني.. سهرت أحاول تذكر ردة فعلي ارتعبت أن أكون قد قلت كلامًا أو عبرت



عن صدمتي أمام ذلك الـ يمّان.. ولكن لماذا سألني إذا كنت رأيت شيئًا.. هل رأى هو؟.. مؤكد لا.. ماذا سيري؟ رؤى كفاكِ عبثًا.

تذكرت صوت الرجل وهو يقول: «أيديا، اشتقت لكِ يا جميلتي» فأغمضت عيني مثلما كُنت أغلقهما كلما سمعت صوت الرعد وأنا طفلة صغيرة، أقنعتني أمي أنه لا شيء يمكنه أن يؤذيني إن كُنت لا أراه؛ لذلك لطالما أغمضت عيني كُلما خفت وحتي الآن لم أتخلص من تلك العادة، هل كانت تعلم أمي أن الوحوش الذين كُنت أظنهم تحت سريري أصبحوا يطاردون أحلامي والآن يلاحقون واقعي؟ بطريقةٍ ما أجد معتقدات الطفولة أكثر واقعية من عبث الواقع. ذهبت إلى لوحاتي ووضعتها أمامي جميعًا وكأني أحاول استجوابها، تارة أقص عليها ما حدث وأنتظر أن تعترف لوحة ما بأنها الفاعلة، أن تعترف إحداها بأنها هي بداية اللعنة، وتارة أخرى أحاول أن أرتبها وكأنها لغز يجب حله وكأني أريد أن أدقق بملامحها أكثر، أستنشق رائحتها.. شعرت بأن هناك بداخلي بابًا فُتح فقط بنبرة صوت ذلك الغريب.. من هي تلك الأيديا!

تيقنت أنني لن أنام وأنني بحاجةٍ إلى فنجان قهوةٍ



لأحاول إيجاد العلاقة المُبهمة بين لوحاتي وبين ذلك الرجل وربما تلك المرأة أيضًا، ولكن حتى لو وجدت فما الذي يجمعني سرًّا بهما؟ وما علاقة يمَّان بتلك العلاقة طويلة الأمد؟ وقفت أتأمل وسط البلد من النافذة،كم تبدو القاهرة هادئة فجرًا وكأنها لم تعج بالخلق طوال النهار! ساكنة وكأنها أم تحتسي الشاي بعدما نام أطفالها بعد يوم طويل من المراوغة واللعب والصراع، حين تركت الإسكندرية لأستقر بالقاهرة أنا وجميلة ومالك.. كُنت أودع البحر وكأني سمكة ستموت بمُجرد أن ينتزعوني منه ومن رؤيته صباحًا.. ومثلي من يعشق هيجان البحر وثورانه لن يرضيه أبدًا سكون النيل وهدوءُه، فأنا مثل البحر أحيانًا هادئة وأحيانًا صاخبة وعنيدة وطائشة.. أحيانًا أجعلك تشعر بالسكينة على الرغم من الجثث القابعة في قاعي وأحيانًا أجعلك تخاف من غدري على الرغم من أنني أبدًا لن أمسَّك بسوء؛ ولذلك اخترت أن أسكن بوسط البلد لأنها تشبه شارع فؤاد بذلك الطراز المعماري القديم والبيوت الواسعة الكبيرة والعمارات التي لا تتخطى السبعة طوابق.. تستطيع أن ترى السماء دون عائق، فإن لم أستطع رؤية زرقة البحر على الأقل أختار مكانًا يمكنني فيه تأمل زرقة السماء.. حاولت إيجاد الإسكندرية بكل



مكان أذهب إليه كرجل يبحث عن حبيبته الأولى في كُل نسائه.. عن ملامحها وصفاتها حتى التي لطالما كرهها، حاولت إيجاد سكينتها وهدوئها على عكس زحام القاهرة وصخبها الدائم.. أتذكر يوم كُنت في المُعزّ أنا ومالك قال لي: «المدن مثل الرجال، تشعر بالحزن وتفرح وتشتاق وتتألم.. تعبر عن أهلها وتتعاطف مع الغرباء كأم مات طفلها فأصبحت تشفق على كل ابن تائه وأحيانًا تقسو عليهم وكأنها تنتقم لموت ابنها»، فلو كانت الإسكندرية عروس البحر المتوسط مثلما يدعونها فالقاهرة أم تلك العروس.. بازدحامها الدائم وكأن لديها عرسًا مساءً ويجب أن تنهي كل التحضيرات وبترحيبها الدائم بكل الزوار على الرغم من أنه ليس هُناك مكان لأهل العروس ذاتهم ولكن أيليق بها التمنع؟.. تأملت الأسفلت فهو ليس بشيء يمكن رؤيته صباحًا، يافطات المحلات وكأن كُل يافطة تقف في شموخ معلنة عن نفسها، لم تسلم السماء أيضًا مني، بقيت أتأمل النجوم وأنا أفكر رُبما تتأملني النجوم الآن.. ربما عندما يقع نجم في العشق يقول لنجمته «إن أردتِ بشرًا من الأرض سأحضره لكِ» رُبما!.. بين كل تلك الأفكار التي انتشلتني من واقعي شعرت بشيء مُريب، لا أعلم ماهيته ولكني أشعر وكأني أريد أن أرى



يمَّان.. أريد أن أريه لوحاتي تلك لأرى ملامح وجهه.. هل سيفاجأ وكأنه يعرفها، أريد أن أخبره عن بداية معرفتي بها وأسأله إذا رأى ما رأيته لأنه لم يبدُ بخير أيضًا.. كان كمن تجمد للحظات ولكن هاتفني مالك فور بداية انتصار الخيط الأبيض على الأسود وكأنه ينتظر أي علامة لوجود شمس تضيء طريقنا المظلم معًا فرجعت لأرض الواقع.. تنهدت طويلًا ثم أجبته، كان يريد أن يأتي ويتحدث معي، وفي الحقيقة أنا كُنت بحاجة أن أحكي مع أحد حتى أنسى أو أتناسى ما حدث لي البارحة، ورغم أن مالك بالطبع لم يكن خياري المُفضل ولكني كُنت سأفقد عقلي إن بقيت وحدي أكثر.

جاء مالك ولكنه كان ينظر لي بعتابٍ لم أفهم سببه، تبدو عيناه جاحظتين حمراوين وكأنه شاركني تأمل السماء من منزله وتمنع عنه سلطانه مثلي، ولم يكن صعبًا التأكد من ذلك؛ فهو مازال بالملابس التي حضر بها الاحتفال ذاتها، وطغى التبغ على رائحة عطره.. كان سيسألني عما يشغل باله.. أعرف ذلك من خطوات قدميه.. يتقدم ثم يتراجع وكأني مثل الجني الذي أعطاه فرصة الأمنية الواحدة.. لديه فقط فرصة واحدة للسؤال ويحاول استغلالها أفضل استغلال.. يحاول التلفظ بذلك السؤال الذي أرقه ليلًا



بطوله بأقل حروف وكأنها سيوف تحيطني حتى لا يكون لدي أي فرصة للتملص من الاعتراف، وفي الوقت ذاته يحاول التركيز حتى لا يصيبني سهم فأنزف الحقيقة وتموت صمتًا.

- ليه مشيتي بدري إمبارح؟

أحاول إيجاد مبرر يقنعه.. فهو يعرفني جيدًا، يعرف من عيني متى أكذب ومتى أقول الحقيقة.. يعرف من حركة خروج الحروف من شفتيَّ كُل شيء أحاول إخفاءه؛ ولذلك فضلت الصمت.. فأنا لا أحب الكذب أبدًا ولكني أعتبر أن عدم البوح حق.. ليكرر المحاولة مرة أخرى فاقدًا للصبر والحكمة كمحتل يقذف على صاحب الأرض رصاصًا في مناطق متفرقة بجسده غير مُميتة عساه يعترف أين يخبئ صك الملكية:

- مين اللي وقف معاكِي إمبارح دا ومشيتي بعدها على طول؟

أعلم أنه شعر بالغيرة، أستطيع توقع ذلك من عينيه اللتين تخرج منهما نار.. مزيج من الغيرة وقلة النوم مع الغضب، وأعتقد أنها المرة الأولى التي يشعر فيها مالك بالغيرة؛ لأنه يعلم أنني لطالما شرعت في الهروب كلما شعرت باهتمام تجاه أحدهم، لطالما هربت عندما أجد



نفسي أبتسم من رسالة نصية لا تعني شيئًا ولكن صاحبها يعني الكثير.. عندما أشعر بمزاجية العشق التي تجعلك تحلق في السماوات السبع من كلمةٍ واحدة وأحيانًا أخرى تجعلك تشعر وكأنك غارق في قاع محيط أحزانك.. يعلم أنني لطالما قتلت مشاعري قبل أن تقتلني، ولكنه كحافظ أسراري وصديقي الشخصي يعلم أنه حدث شيء البارحة وهذا ما جعلني أترك افتتاح الجاليري الذي حلمت به كثيرًا.. لا بد أنه شيء كبير للغاية وقد حدث بعدما جاء ذلك الرجل.. مالك ليس مغفلًا.. أعلم، ولكني لا أعلم الحقيقة لأخبره بها.

- يمان، سمعته برا بيتكلم عني إني برسم عشان الفلوس والشهرة فلما لقيته واقف بيتفرج على اللوحة سألته هل لسة بيفكر إني بارسم عشان الفلوس.. استفزني يعني فحبيت أحرجه مش أكتر.

ليصمت قليلًا وهو يشعل سيجارته ليقول كضابط يعلم الحقيقة ولكنه يريد أن يجعل المُجرم يعترف بفعلته:

-بس مكنش شكله مُحرج خالص.

لأرد بتلقائية:

-فعلًا هو اللي أحرجني بذوقه.

ليبتسم مالك ابتسامة أعرفها جيدًا، ابتسامة اليأس..



تيقن أنه لن يستطيع جعلي أتحدث ما لم أرد.. لطالما علم ذلك، ولكنه لم يستطع منع نفسه من المحاولة، أو ربما لم يستطع منع نفسه من السؤال الذي بقي يطوف بعقله ساعات الليل.

واستيقظت جميلة أيضًا.. جلست بجواره وهي تسند رأسها الخامل على كتفه وتسألني عما حدث البارحة مجددًا، ثم تصمت قليلًا لتفهُّمها وجوده، وتغييرًا للموضوع تسأله: «إنت بتعمل إيه هنا، أنام وأصحى ألاقيك نايم عندنا والله لأقول لأبوك» ليبتسم مالك وتشد شعره كما كانا يفعلان منذ كانا طفلين لأتحجج بضجيجهما وأحاول الانسحاب ولكن هيهات أن تستطيع الهروب من أرض معركةٍ جميلةُ هي المكلفة بالقيام بأعمال القوات المسلحة فيها، وقفتْ وجعلتْ يدها وكأنها مسدس وتقول لي بصوتٍ رخيم: «ارفعي إيدك فوق وارجعي مكانك» ليقوم مالك بخفة ظل ويقول لها: «مش هتقتليها قبل ما تقتليني» لتقول جميلة بمرح: «إذًا فلتذهبوا للجحيم» وتفتعل صوت الرصاص بفمها لندعي الموت أنا ومالك ونقع أرضًا ثم تصرخ وتقفز فوقنا ونضحك جميعًا كأننا لم نكبر أبدًا.. كان مالك يعلم أن جميلة هي أمله الأخير في أن يعرف أي شيء، فتحجج بأن لديه عملًا ليذهب ويتركنا ويغمز لها



لأقول بصوت عالٍ: «شُفتك» ليضحك.. لم أكن لأستطيع تركه يرحل وهو غاضب، كان صوت ضحكته هو هدنة غير معلنة بيني وبين قلبه.. قلبه الذي ينبض بعشقي وينتظرني كما ينتظر فلسطيني تحرير وطنه الضائع.. بأمل لم -وربما لن- يفقده أبدًا.

مُجرد أن سمعنا صوت قفل الباب قفزت جميلة فوقي وهي تسألني:

-إيه اللي حصل إمبارح، إزاي تمشي كدا.. أنا كُنت هتجن، احكيلي وبسرعة ولو قولتي مفيش والله هكب كل ألوانك في الحوض.

كُنت أعلم أني لو حاولت الهروب من كُل العالم لم أكن لأستطيع الهروب من جميلة أبدًا.. ليس مجددًا على الأقل.. فأخبرتها كُل شيء لأجدها صامتة مندهشة.. أخبرتها عن آيديا ولوحاتي ويمَّان وذلك الرجل.. أخبرتها وكأني أتخلص من الماضي وكأني أتسلح بها لمواجهة الحاضر.. هي التي تحولت من صديقة لأم يوم وفاة أمي.. أتذكر أني بكيت بين ذراعيها الصغيرتين أكثر مما بكيت لأبي.. أن قلبها حمل عني همومًا لم يحملها من هم من دمي، أتذكر يومًا كنا بالمدرسة وكان مدرس العلوم يسألنا إذا تخليت عن عضو من أعضائك لإنقاذ أحد أصدقائك فما



هو؟ ولمن؟ قالت دون تفكير: سأتبرع بقلبي لرؤى.. قال لها المعلم: إنه قلب واحد، ستموتين بدونه، لتقول ببراءة تجعل قلبي يذوب كلما تذكرتها: «ولكن إن كانت بحاجة إليه وستموت دونه سأتبرع به، فأنا بكل الأحوال لن أستطيع العيش دونها».. لطالما كانت هذه الجملة البريئة شفيعة لها طوال سنوات لكل المرات التي شعرت أنني أريد قتلها فيها ولم أفعل..

صمتت وكأن عقلها لم يستوعب كل ذلك الغموض.. جميلة إنسانة تلقائية واضحة شفافة لم تعهد الخبث ولم تستوعب أبدًا حواراتي الصامتة أنا ومالك.. كانت ترهقها مراوغتنا فتتركنا لتستمع إلى الموسيقى وكأنها تنتشلها من واقعٍ لا تنتمي إليه.. لطالما آلمتها واقعيتي وحالمية مالك.. كانت دائمًا حالمة بواقعية فكانت بمثابة حلقة الوصل التي تربط بين عالمي وعالم مالك من الأساس.

- يا بنتي هو انتِي فضلتي تزني عليا أحكيلك عشان تسكتي، أنا مش فاهمة حاجة.. كلميني بدل ما أتجنن.

لتقول وكأنها تجد صعوبة في استيعاب كل ما وقع على عاتقها:

- مالك مش هينفع يعرف عن اللي حصل دا وانتِي منك لله خليتيني أعرف وخايفة أقع بلساني قدامه.



لأفتعل الغباء وكأني لم أحاول إخفاء الحقيقة عنه منذ قليل لأسألها: لماذا؟ لتتحرك من مكانها ذهابًا وإيابًا بتوتر وتقول:

- إنك بترسمي ناس من وانتِي صغيرة وفجأة بدون مقدمات تسلمي عليه وأيديكم تلمس بعض فتشوفي الأشخاص دي والراجل كمان يسألك شوفتي حاجة؟ معناها إنه هو كمان شاف.. يعني وإلا كان قال عليكِي هبلة وخلاص.

كان كلام جميلة أقرب شيء للمنطق ولكني كُنت خائفة للغاية من تصديقه.. إذا كان كلامها صحيحًا فهكذا يجب أن أقابله مجددًا.. يجب أن أراه رُبما يعلم هو ماذا يحدث، رُبما لديه الحقيقة أو حتى نصفها الآخر.

لأقول بصوتٍ مسموع وكأني أحادث نفسي:

-يبقى لازم أشوفه.

لترد بالنبرة ذاتها وهي نصف عقلها مع مالك وكيف سيواجه الحقيقة حين يعلم:

- ماظنش، أنا حاسة الموضوع قدري جدًّا.. ف الوقت المناسب هتشوفيه وهتفهمي كُل حاجة.. المُهم للوقت دا متتصرفيش غلط.

أوصلتني جميلة إلى الجاليري وكأنها تريد التأكد من



خلو المكان من تهديد رائحة يمّان، وحين اطمأن قلب أمي الصغيرة رحلت وأصبحت وحدي مجددًا، بقيت أتذكر كُل شيء.. تذكرت ملامحه، ذلك الخواء والوحدة والخوف غير المعلن.. بقيت أتذكر كُل شيء وأخرجت الرسمة التي نسيت إعطاءها له.. شعرت بشيء يجتاحني، مشاعر خفية تنمو بداخلي من العدم.. وضعت الرسمة أمامي وأنا أفكر بمالك، حتى وإن لم أكن عاشقة فهذه تعتبر خيانة لرجل خان كبرياءه لأجلي.. فقررت التوقف عن التفكير به ولكني أعلم أنني لن أتوقف حتى أرسمه، مثلما أفعل دائمًا منذ كُنت طفلة.. كُلما علق شيء بذهني أرسمه حتى أتخلص منه، وكأنه يختفي كُلما وضعت ألواني على لوحة بيضاء فيتحول من أفكار تحوم بعقلي إلى ألوان على لوحة.. فقط لا غير.. شعرت أني ظلمته قليلًا فربما هو ليس بتلك السوداوية.. بالفعل بدأت برسمها مغمضة العينين وكأنني عمياء وأقرأ بطريقة برايل.. كُنت أتذكر جيدًا تفاصيله الصغيرة وكأنني تأملته لدهر.. رسمت عينيه وشفتيه وأنفه الدقيق ولحيته السوداء التي تجعلك تشعر وكأنها قطعة من سماء الليل مع شعيرات بيضاء صغيرة وكأنها نجومه الخاصة ووجهه الذي يمثل القمر.. شعرت أنني رسمته لأعوامٍ وليست هذه المرة الأولى..



شعرت أن هُناك شبهًا بينه وبين بطلي الغامض؛ وربما لذلك جمع عقلي الباطن بينهما حين قابلته.. كان اللاوعي يحاول إخباري بمدى الشبه فقط لا غير.

نعم إنه هكذا فقط..

قلتها بصوتٍ عال وكأنني أحاول إقناع نفسي بأنه لا داعي للتوتر أبدًا، إنها مُجرد صُدفة.

أقنعت نفسي بذلك وعاودت حياتي اليومية على أمل أن أنسى حقًّا ما حدث.

* * *

يمّان

إنه اليوم الأول الذي لم أحلم بهما منذ شهور.. أشعر وكأني نمت لقرون وليس لمُجرد ساعاتٍ.. كُنت مُرهقًا للغاية، فما حدث البارحة جعلني مستنزفًا.. نهضت من السرير لأتعثر بمنير وأقع فوقه فيستيقظ يسب ويلعنني.. نسيت أنه قرر المبيت معي، لم أكن أعلم أن الوضع بذلك السوء الذي يجعله يبقى معي نائمًا على الأرض بغرفتي رغم أن له غرفة خاصة بمنزلي حتى يبيت هنا متى شاء.

ليقول وكأنه يفتعل البكاء بصوتٍ نائم:



-يابني أنا لا مرتاح منك صاحي ولا نايم.. إنت عملي الأسود.

ضحكت.. فأنا أعلم أن منير يحبني كثيرًا وقررت أن أعوضه بفطوره المُفضل.. وبالفعل هاتفت عم عزب وطلبت منه أن يحضر لي بعض الطلبات.. واستيقظ منير وهو متعجب أني أضحك.. أحيانًا يجعلني أشعر أنني ولدت دون إمكانية الضحك.. ليسألني:

-بتضحك؟ خير اللهم اجعله خير.

لأخبره أنني لم أحلم بهما، ليقول بسخرية:

-والله الناس دي زوق، مرضيوش يجولك مرتين بعد ما شُفتهم إمبارح.

لأضحك رغمًا عني وألكمه ليخبرني وكأنه يعيدني إلى أرض الواقع أن علي أن أحادث بسنت.. كُنت أعلم أنني يجب أن أحدثها، فقد تركتها البارحة بأسخف طريقة يمكن أن يستعملها رجل.. أوقفت لها «تاكسي» وأخبرته بمكان بيتها ودفعت له ورحلت دون كلمة.. لا أعلم حتى إن كانت ستنظر لوجهي من الأساس ولكني لم أكن لأستطيع تحمل كلمة دون الانهيار.. كُنت في حالة يرثى لها.. ولن أستطيع أن أشرح لها سبب حالتي فرأيت أن هذا كان أفضل حل.



وبالفعل اتصلت بها وكما توقعت لم ترد.. أخبرته كمن تخلص من عبء فوق روحه: «إنها لم تجب» وللحق أنا أيضًا لم أنتظر طويلًا حتى أغلقت الخط.

ليُخبرني وفمه مليء بالطعام:

-دا أقل واجب، واحدة تانية كانت اتصلت وهزقتك أصلًا.

كُنت أعلم أن ما يقوله منطقي، ولكنني كُنت أثق بأن حُبها لي سيجعلها تغفر فذهبت إلى المستشفى وقررت أن أحدثها وجهًا لوجه..

رأتني..

ابتسمت لها..

ولكنها لم تبتسم.. فقط ذهبت.

لأول مرة لم تركض وتحاول فتح مجال للكلام بأي شكل سواء طبيًّا أو غيره، لأول مرة لم أرَ عينيها تلمعان شوقًا بل عتابًا وغضبًا.. وللحق لأول مرة رغبت أن أحادثها، حتى إنني حاولت خلق الحجج لأذهب لمكتبها.. كم هو غريب الإنسان! البارحة أتهرب منها واليوم أركض وراءها.. عندما يكون لديك الشيء تتمنع عنه وفقط حين يتمنع الشيء عنك تصبح مثل المدمن أو الطفل الصغير المتملك.. تذكرت مقولة «كُل الحُب تعوُّد ولكن



ليس كُل التعود حُبًّا»، أعلم أنني لا أحب بسنت ولكنني لن أنكر أنني أحببت حُبها لي، أحببت حقيقة أن هنالك في هذا العالم من يحبني دون ملل ويأس.. أعتقد أنها فطرة التملك فقط لا غير.. فالإنسان لا يقبل فكرة الخسارة أو الفقدان حتى لو لم يكن عاشقًا، إنها الفطرة التي خلقه الله عليها؛ أن يكون على استعداد أن يحتفظ بالشيء دون أن يمسه أو يستخدمه، ولكن لا يتخلي عنه لغيره، مثل كل كتبنا ونحن أطفال وملابسنا القديمة.. نحتفظ بها ونحن على يقين أننا لن نستخدمها مجددًا، ولكننا نستمر في تأليف الحجج، كما تقول الأم التي ترفض التفريط في ثياب صغارها إنها تحتفظ بها لأطفالها رغم يقينها أن أطفالها لن يستخدموها مجددًا؛ فهي في الحقيقة ترفض التخلي عن ذكرياتها هي، في ذلك اللباس خطا طفلي أولى خطواته، وفي ذلك أصيب بالحصبة، وبذلك الفستان الصغير كانت في فرح فلان.. أنا الآن مثل تلك الأم ربما تعودت على وجودها حولي وصوتها صباحًا ومحاولتها المُستميتة لكسب قلبي.. رُبما بالنهاية هُناك جزء بقلبي مال لها.. وبعد عدة محاولات مني على مدار اليوم تكلمت معي:

-بسنت، أنا آسف.

-آسف على إيه؟



-على إني روحتلك إمبارح بالطريقة دي، بس فعلًا أنا مكُنتش كويس ومكنتش عارف أفكر.

-إمبارح بس؟.. يمَّان هو أنت فاكر محدش عنده مشاكل غيرك؟ محدش عقله بيتشوش ومش بيعرف يفكر غيرك؟ محدش بيتضايق وبيحتاج يبقى لوحده غيرك؟.. عارف الفرق إيه بينك وبيني مثلًا؟ رغم إننا إحنا الاتنين بنمر بنفس الحالات دي بس أنا مش أنانية.. أنا مش بعلق الناس بيا من غير ما أعرفهم راسهم من رجليهم.. ف لو هتعتذر على حاجة تقدر تعتذر لي على وقتي اللي ضاع معاك وقلبي اللي اتوجع.

-بس أنا عُمري ما قولتلك إني بحبك.

- بس عارف إني بحبك.. عارف وسايبني، عارف واتضايقت النهارده لما لقيتني متجاهلاك.. اتضايقت من يوم واحد تجاهلتك فيه وأنا بمُر بدا كُل يوم.. بس هو تقريبًا المشكلة فيا أنا، أنا اللي منحتك أكتر مما تستحق.. من النهارده إنت مُجرد دكتور يمَّان زميلي.. زي ما انت عايز بالظبط.

كانت كالبركان الذي انفجر وأخرج كل ما بداخله.. وأحرقتني حقيقة حممها، ولكني لم أستطع لومها، وكأن البارحة كانت عملية فتح جراحها وتنظيفها مني، من



صديد عشقي السام.. لطالما أجَّلت ذلك الحديث.. رُبما حقًّا خوفًا من خسارتها ولكن ألم أخسرها الآن؟ أو ربما كنت بالأنانية التي تجعلني أرفض اتخاذ موقف تجاه عشقها غير المعلن.

لأذهب إلى مكتبي وأطلب قهوة من أبو عبده لأجده يجلس بجانبي ويقول:

-يا دكتور يابني ما تشغَّل لنا الست أم كلثوم شوية.. اليوم كان طويل ولسة مكمل.. محتاج أسمع الست عشان أجيب طاقة أكمل.

لم أستطع منع نفسي من أن أبتسم من قوله.. وبالفعل شغلت أم كلثوم ليُدندن مع الست:

حيرت قلبي معاك.. وأنا بداري وأخبي..

قل لي أعمل إيه وياك.. ولا أعمل ايه ويا قلبي..

ليقول:

-القلب دا ملوش كاتالوج.. يعني متقدرش تحببه ف حد بالعافية ولا تنسِّيه حد بالعافية.. القلب بيسوق مبيتساقش يابني.

وكأن قوله كان مُسكنًا لروحي، وكأن كُل ما كُنت بحاجة له هو أن يقول لي أحدهم إنه ليس لي سلطان على قلبي، شعرت بالسكينة وتقبل ذاتي لكل ما بداخلي من خير



وشر وخبث وحُب.. شعرت وكأن حروفه كانت بمثابة الوضوء لروحي وكأنني تطهرت من أفكاري.. أغمضت عينيَّ وهي تُكمل..

هفضل أحبك من غير ما أقولك إيه اللي حير أفكاري، لحد قلبك ما يوم يدلك..

وقفزت تلك الرؤى لعقلى.. لأسال أبو عبده:

بتؤمن بالقدر يا أبو عبده؟ يعني إنه يجمع بينك وبين حد لسبب مُعين؟

ليفتح عينيه قليلًا بعدما كان غارقًا بشغف في صوت الست ويبتسم وهو يقول:

إنت عارف أنا قابلت أم عبده إزاي يا دكتور يا ابني؟.. كُنت رايح أجيب عيش ووقفت ف الطابور، وجات هيَّ وقفت ف طابور الستات.. حسيت وقتها زي السيما كدا إن كُل حاجة وقفت وشعرها بيطير.. وفجأة نزل عليا شبشب وهزقتني وكل الستات يهزقوني عشان فاكرني كُنت بعاكسها، وتاني يوم كُنت عندها في البيت وباتقدم لها.. كانت بتحب الست رغم إني مكنتش بحبها، بس كُنا نقعد كُل يوم خميس عشان نسمع حفلة الست وعشان كدا دلوقتي بحب أسمعها.. بحسها قاعدة جنبي وبتسمع معايا وكأن الحاجة الوحيدة اللي هتخلي روحها



تجيلي هو صوت الست.. ف بقى صوتها هو الأمل بالنسبة لي.. ولو أمل مش حقيقي يعني بس لما بتحب بتبقى عايز أي حاجة من ريحته حتى لو صوت حد بيحبه.

كُنت قد فقدت إيماني بالحُب حتى التقيت بأبو عبده.. ذلك الرجل وحُبه الذي لا يموت لأم عبده رغم موتها منذ أكثر من عشر سنوات.. كان دائمًا يقول عنها: «الأصالة» لأنها تمسكت به في ظروفه العصيبة ولم تتركه أبدًا.. لنعود لأرض الواقع بدخول منير الغرفة وهو يخبرني عن وجود حالة جراحة طارئة لأركض وأجدها فتاة في السادسة عشرة من عُمرها لديها نزيف داخلي أقول لها وهي شبه فاقدة للوعي: «أنا دكتور يمّان إسماعيل، إنتِي في إيد أمينة.. لا بأس».. لطالما سخر مني زملائي عندما أقول هذه الجملة لمرضاي ولكن ألا يستحق ذلك المريض الذي يسلمني حياته على الأقل أن يعرف اسمي، أن أطمئنه أنه سيكون بخير حتى وإن لم أكن أنا مُتأكدًا من ذلك بنسبة كبيرة.. لا أحد يستحق أن يشعر بذلك الرُّعب.. يكفيه الألم.

كانت حالتها متأخرة، أوقفت النزيف وانتظرت أن تفيق ولكنها لم تفق.. أعلن الجهاز عن توقف قلبها ولكني استخدمت جهاز الصدمات.. لم تفق! أرجوكِ لديكِ حياة لتعيشيها أنتِ



مازلتِ صغيرة.. أفيقي.. حاولت حتى أوقفني منير وهو يخبرني: «فقدناها خلاص» ويصرخ بي حتى أتوقف وأنا لا أقول سوى: «فوقي».. وكأني كُنت أعلم أني لن أتحمل أن أفقد مريضًا اليوم.. فقدت أعصابي..

-أنا قولتلها إنها هتبقى كويسة.

-الحالة واصلة متأخر، إنت دكتور وعارف نسبة النجاة مكنتش هتعدي الـ ١٠ %..

-بس كان فيه أمل إنها تعيش، ولو بنسبة قليلة.

وقف منير وهو يقول بحزمٍ:

-روح يا دكتور على بيتك، ولما تعرف تهدى وتتمالك أعصابك إبقى ارجع.. هكتبلك أجازة لحد ما تهدى وتفهم إنت دكتور جراح مش معجزة.

كانت الساعة السادسة مساءً حين تركت المستشفى ولم أجد نفسي إلا أمام ذلك الجاليري.. بقيت أتأمله من الخارج وأتذكر أحلامي، أتأمل كُل تفاصيل ذلك الجاليري التي بالتأكيد ليست من وحي الخيال.. كُل شيء هُنا يحل لغزًا بأحلامي.. بدايةً من الشكل المعماري للجاليري، للوحات، للتماثيل ولرؤى!

وقفت أمام الجاليري، لا أعلم هل لدقائق أم ساعات حتى وجدتها تخرج منه.. وقفت أتأملها بصمتٍ وهي تقول



بدهشة:

-يمان!

تتذكرني وتتذكر اسمي.. إذًا أنا في المكان الصحيح هُنالك شيء حدث تلك الليلة وهي رأته مثلي أيضًا لأقول وكأنه من المفترض أن أكون هُنا معها بهذا الوقت، وكأنه ليس هُناك أي ريبة أبدًا فيما حدث وفيما سيحدث:

-عندك بُن حلو؟

لتُجيبني بقلق لم تستطع إخفاءه:

-وبعرف أعمل قهوة حلو كمان، اتفضل ادخل.

لتفتح الباب الذي أغلقته للتو.

* * *

رؤى

قضيت يومي أرسم يمَّان ليس فقط لأنني أريد؛ بل شعرت وكأن هُناك قوًى خفية تمسك فرشاتي وترسم بدلًا مني بإتقانٍ غريب وبتفاصيل ملامحه التي حتى لم تلفت انتباهي وكأني أراه أمامي.. جاء مالك وجلس بجواري.. شعرت به ولكني كُنت منهمكة بما أفعله؛ لذلك لم أتحدث قط، كُنت أستمع لموسيقى هاوزر وأتامل ملامح ليست



مُكتملة بعد مثل قصتي مع صاحب اللوحة.. فكرت لوهلة بتركها بذلك الغموض وكلما اكتشفت شيئًا ما أكمل ما تبقى منها، ولكن ماذا لو ظن القدر أنني هكذا تخليت عنها فتخلى عني؟ وكيف لو بإمكاني مقايضة القدر برسمه عساه يهديني إلى مفتاح فك اللغز؟ لينتشلني من صمتي وتأملي صوت أقدام مالك وهو يحاول لفت انتباهي.. يتحرك ليقف بجواري يتأملني ويتأمل لوحتي وكأنه يعاين مكان الجريمة، المكان الذي تمت خيانته فيه.. يحاول إيجاد بقايا مشاعر منسية على اللوحة عساه يقذف الحقيقة بوجهي ويقول: «كُنت أعلم أن هُنالك شيئًا غريبًا بأمر ذلك الرجل».. يتأملها كأنه يبحث فيها عن ملامح رجل رُبما يعرفه، ليتنهد كأنه تخلى عن مسدسه.. أذكر أنهم قالوا عندما اخترع «صمويل كولت» المسدس: «الآن يتساوى الشجاع والجبان» فرُبما قرر مالك ترك تهديدي بحروفه المتقنة وأسئلته الموجزة ليسلب مني درع صمتي ويبدأ في مبارزتي بشجاعة وجهًا لوجه ليقول:

-تعرفي إنك عُمرك ما رسمتيني؟

فهمت أنني الآن أحاور مالك الكاتب، الذي يبارزني بالحروف الواضحة الصريحة دون عبارات مفخخة، ودون جمل تحمل بداخلها قنابل مسيلة للدموع، وأدرك أنه



عليّ أن أكون بنفس درجة إيجازه ودقته، وكأنني أختار ألوانًا تفوز على اللون الأسود في وضوحه وحزنه وجراءته.. لأقول له:

-في ناس ف حياتنا مش بنحتاج نرسمهم عشان نعرفهم مكانتهم عندنا.. يعني مثلًا عُمري ما رسمت نفسي ولا جميلة ولا ماما ولا انت كمان.

ليقف مالك بجانبي ويضع يديه فوق كتفي، رُبما ليتأمل ردة فعل جسدي.. هل سأبعده، أم سأتركه.. هل سأنتفض أم لن أتأثر كأن يديه خيط من سراب، أو ربما ليقف مُعلنًا سلطته على جسدي أمام لوحةٍ ليجعلها شاهدة أني ملكه عساها تنتمي لرجل، ولكنى أجدت التحكم في ردة فعلى.. أو هكذا ظننت.. رُبما هُنالك أشياء لا نستطيع التحكم بها مهما حاولنا.. وقف ينظر لي أمام لوحتي ويداه مازالتا على كتفي ويقترب من اللوحة أكثر وكأنه يحاول جمع ملامح أحد، يحاول أن يكتشف من ذاك الذي ليس لديه مكانة في قلبي ولكني بالرغم من ذلك أحاول التخلص منه، من ذلك الذي اقتحم روحي وعقلي الباطن لدرجة تذكُّر ملامحه دون الحاجة لصورةٍ.. يحاول معرفة سبب غصة قلبه وشعوره بالخطر الفطري الذي استوطن قلبه منذ افتتاح الجاليري وكأن بافتتاحه فُتحت عليه أبواب



الخوف، وشعوره الدائم بالفراق الحتمي.. أعرف مالك جيدًا، أعرفه لدرجة أنني لطالما أجبت عن أسئلته التي تمنعه من النوم ليلًا دون حتى أن يسألها، لطالما فهمته من عينيه ونظراته.. تعود معي على الكلام الصامت، فأنا لا أتذكر يومًا تكلمنا بصوتٍ مسموع حقًّا.. رُبما لذلك أحبني، أحب أنني أستطيع فهمه دون الكلام.. هو الذي يجد الكلام أصعب من اختراع قنبلة ذرية.. لأن القنبلة تقتُل الشخص وتُريحه من آلامه ولكن الكلام يقتل الشخص ويتركه بين الحياة والموت، يتركه قتيلًا على قيد الحياة.. يجد الكلام غير عادل أحيانًا؛ لذلك في أحلك أوقاتنا لطالما صمتنا حتى لا نُقتل بحروف من نحبهم.

-وحشتيني.

قالها دون مقدمات، وكأنه قرر أن يُحاربني بأكثر ما يُجيد، بالحروف والمشاعر وبذكورته.. يقولها واضعًا يديه فوق جسدي وكأنه مقياس ريختر يحاول رصد قوة الذبذبات التي ستزلزل عاطفتي، ناظرًا لعينيَّ وكأنه يترجاهما أن تقوا شيئًا، أي شيء!.. ظل يتأملني، يتأمل وجهي بصمتٍ.. ابتسمتُ وأنا أحاول الهروب من خط الزلازل الذي يحاول حبسي فيه للاعتراف بما لم أفعل لأقول:



-أنا هِنا.. وحشتك وأنا قدامك؟

ليقرر استخدام سيفه، ليلقي درعه بعيدًا ويبدأ بمبارزتي ليصيب قلبي بأول طعنه، طعنة لم تُصبني وحدي؛ بل أصابته أيضًا وكأننا نفس الشخص؛ ما يُصيبني يُصيبه، أو رُبما هو لم يُصبني أنا بل أصاب نفسه، رُبما كُنت أنا الطعنة التي قتلته.

-عارفة، أنا لو هكتبك دلوقتي.. مُمكن أكتب عن اللاشيء الكامل، الـ «كل حاجة» والـ «ولا حاجة»، هكتب عن السراب اللي كُل ما تفكر إنك وصلتله تكتشف إنه بيبعد وبعد فترة تكتشف إنه مش موجود أصلًا.. السراب يا رؤى.

لأرى أمامي ملامح رجل مهزوم في حربٍ أنتصر فيها، رجل أنا كُل ما يفكر فيه.. ورجل أحادي اللون على لوحة يتأملنا ويحدث أن يكون هو كُل ما أفكر فيه.. رُبما هزيمته ليست لاحتمالية هزيمته من بشر، بل لأنه هزمته لوحة، مثلما هزمتُه يوم اخترت أن أقيم افتتاح الجاليري يوم عيد مولدي بدلًا من خطبتنا لأفكر أنه رُبما بالحُب ليس هُناك من هو فائز ومن هو خاسر.. نربح معًا أو نخسر كُل شيء.

هزمتني هزيمته فرميت درعي بجانب خيبته ولمست



وجهه، أغمض عينيه مستسلمًا للمستي وبقيت أمر بيدي على ملامحه كأنني أحفظها باللمس، كأنني أعلن مملكتي فوق كل شبر تمسه يداي.. وبقي ساكنًا وكأنه يخترع بخياله وجهًا جديدًا يتكون فقط من الأماكن التي لمستها.. تأملت وجهه بصمتٍ وأنا أحاول إيجاد ملامح رجل رُبما يشعل بداخلي نار الحُب المطفأة.. رجل أشعر بشيء وأنا ألمسه، أي شيء! عساي أقع في عشقه يومًا ما.. عساي.

لأقول وكأني أتحدى ملامح الرجل غير المكتملة بلوحتي:

-تيجي نتعشى سوا؟.. الساعة ٨ في المطعم اللي بنحبه في وسط البلد؟

ليفتح عينيه، يبتسم قليلًا وينظر لي كطفل وعدته أمه للتو أن تحضر له الحلوى كي تجعله يغفر لها غضبها عليه صباحًا فينسى وأنسى وننسى ما نحاول أن نتناساه، أحاول أن أنسى حقيقة أنني لستُ واقعة في عشقه وهو يحاول أن ينسى هذه الحقيقة، والقدر يحاول أن يتناسانا وفقط الحُب يذكرنا بما نفتقده.

ليرحل مالك وهو يفكر كيف سيستعد لفرصته مع تغيير كل شيء، مازال رومانسيًّا وحالمًا كما كان وهو في العاشرة من عُمره، وما زلت أرى الأشياء بواقعية مؤلمة



حتى الآن.

لأجلس أمام ملامح رجل غير مكتملة تتربص بي وكأنها تعاتبني على ما فعلته، تعاتبني على جبني من أن أكمل ملامحها، تنظر لي بلونها الأسود وكأنها تستفزني لإكمال ما بدأته.. تُخبرني بألوانها الصريحة الواقعية أنه ليس هُناك فُرصة للتراجع.

أسترجع صوت ذلك الغريب الذي سمعته فقط لمرة واحدة، وأحاول إيجاد ملامح تليق بغموضه أكثر من ملامحه، رُبما لحية أشد سوادًا أو عينان أقل اتساعًا ولكنني لم أستطع إيجاد ما يليق به أكثر منه.

مر اليوم بثقل غريب وكأن القدر يحاول أن يجعلني أتراجع عن موعد العشاء مع مالك محاولة مني لإصلاح ما ليس موجودًا من الأساس.

لأتحدى القدر الذي طالما فشل في أن يتحداني وآخذ حقيبتي وأقرر أن أذهب مبكرًا للمطعم.. لطالما قال لي جدي: «من يصل مبكرًا يجد الخير».. رُبما حاول أن يزرع بي الدقة في المواعيد التي تفتقدها كل نساء العائلة ماعدا أنا؛ ليتحداني القدر لأول مرة

لأجده أمامي..

ذلك الرجل الذي كان يتربص بي منذ لحظات



ويعاتبني على عينيه غير المكتملتين اللتين تمنعانه من مراقبتي بشكل جيد.. هذا الرجل الذي تركت موعدي مع ملامحه الناقصة لموعدي مع رجل عسى ملامحه المتكاملة أن تجعلني أشعر شيئًا يومًا ما.. لأجد أمامي يمَّان، هل زرع بي جدي دقة المواعيد ليوم كهذا؟ هل هذا الخير الذي كان يعنيه منذ أكثر من عشرين عامًا.

تذكرت جميلة وهي تقول إن كُل شيء سيكون قدريًا.. ولكني لم أستطع إخفاء سعادتي برؤيته مجددًا وكأن بيننا أسرارًا نتشاركها لا يعلمها أحد، حتى نحن.

وجدته يقول إنه يُريد شرب القهوة.. ضحكت من حجته وها هو أمامي، يرتشف قهوته.. يضع نفس رائحة العطر التي تتحرش بحواسي مرتديًا معطفًا أسود كعينيه، وقميصًا أبيض وكأنه يعلن الحداد بجميع الألوان الصريحة.. فالأبيض كالأسود يستخدم للحزن والفقد والألم.. رُبما لذلك يرتدي العريس لونًا أسود ليعلن حُزنه مسبقًا على حُريته التي ستسلب منه وأنه سيتحول رويدًا من شاب متسكع لزوج مسئول وأب عليه أن يكون حنونًا بذلك اللون الذي يختبئ خلف أناقته وترتديه العروس لتعلن حُزنها على فراق أهلها مختبئة خلف بهجة ذلك اللون الذي يُعتبر لون الحُزن في كثير من الدول الأوربية، ليتأملني



يمَّان وهو يحاول إيجاد المدخل الصحيح لبداية مناقشة ستطول ولن نستطيع إنهاءها بسهولة.. يحاول إيجاد ثغرة يستطيع حبسي فيها، ولكنه لا يعلم أني أصبحت متمرسة بسبب مالك ليقول:

-شكلك مُهتمة بالعصور القديمة.

لأتذكر ما رأيناه وجميلة وهي تقول إنه حتمًا رأى شيئًا مثلي.. تيقنت من كلامها ولكنني قررت أن أراوغه حتى يعترف أولًا.

-بحس إني بنتمي ليهم، ناس بتقدر الجمال والفن.. لا كان هدفهم فلوس ولا جاه، كأن الفن هو الدم اللي بيجري في عروقهم.. إيديهم كانت قادرة تحول أي شيء لتحفة فنية، ف بتمنى أقدر أبقى زيهم وكأني بستدعي روحهم.

لينظر لي وكأنه استوعب ما أحاول فعله فابتسم برزانة رجل متمرس يعلم جيدًا ماذا فعل سؤاله بي وكأنه فخ وقعت فيه ليحاول استخدام محاولة أخرى لتهدئة التوتر الناشئ لسبب معلوم ولكنه مجهول.

-مُمكن تشغلي مزيكا؟

لأنهض وأشغل باولو بونفينو.. ليغمض عينيه قليلًا وهو يتحرك بالجاليري وكأنه يعرف تمامًا أين يضع قدميه وليس لأنه زاره مرة فقط، بل كأنه يتأمل كُل شيء بأذنيه



بدلًا من عينيه ليسألني وبصوته نبرة شغف لم يستطع إخفاءها:

-باولو؟

لأقول «أها» بصوتًا خافتًا نعم دون أن أتحدث، وكأنه مُحرم أن نتحدث أثناء سماع تلك المقطوعة الفنية.

ليسألني بالعربية الفُصحى:

-هل تعلمين ما هي الموسيقى؟

تعجبت من استخدامه العربية الفُصحى، ولكن تعجبت أكثر من السؤال.. حقًّا ما هي الموسيقى!

لطالما أحببتها ولكني أبدًا لم أسأل نفسي عن ماهيتها.. رُبما لأننا عندما نُحب لا نهتم بماهية الأشياء بل بماذا تجعلنا نشعر فقط.

ولكني أجبته.

-روح، الموسيقى قادرة على أن تجعلك تشعر.. تشعر بشيء أو بكُل شيء، وكأن لكُل آلة مكانًا بالروح تتعرف عليه تستطيع أن تُشعرك بالألم/ بالعشق/ بالوحدة.. وأحيانًا تجعلك تشعر بكُل شيء دفعة واحدة، تجعلك تتلذذ بالألم.. الموسيقى قادرة على أن تخلق فيك مشاعر لم يستطع البشر جعلك تشعر بها.

لينظر لي وهو يفتح عينيه قليلًا حتى بقي يتأملني



بصمت، بقي ينظر لي لثوانٍ ولكنها مرت كساعات.. اقترب مني وكأنه بكل خطوة يكسر بها حاجزًا ليسألني:

-أليس لديكِ فضول أبدًا لتعرفي لماذا أنا هُنا؟

لأجيبه بمراوغة:

-بلى، عندي فضول، ولكن لأعلم لماذا نحن نتحدث العربية الفُصحى.

ليضحك وتظهر أسنانه التي لم يستطع التدخين ترك آثاره عليها:

-اللغة دي مش بنستخدمها مع حد أبدًا، اللغة دي بنستمتع بيها وبس، وإحنا بنقرأ روايات/ أدب/ شعر، بنسمع مزيكا مختلفة.. اللغة دي بنستخدمها مع الفن بس وانتِي فنانة، محدش يستحق أستخدم الفُصحى معاه غيرك.. حاولي وهتستمتعي فعلًا، نتكلم بس بالفُصحى، تبقى لُغتنا إحنا بس.. اتفقنا؟

لأجد نفسي دون أي جُهد منه أقول: «موافقة»، دون أن أساله لماذا هو هُنا، لماذا أسمع معه باولو بعد إغلاق الجاليري.. ومالك! وميعاد العشاء الذي نسيته أو تناسيته!.. ولماذا نستخدم لُغتنا الخاصة؟ هل هذه طريقته في إخباري أننا سنتحدث كثيرًا وسنلتقي أكثر؟ ولماذا أنا جالسة معه هُنا وتاركة رجلًا يلبس بيده دبلة عليها اسمي



وكأنها تعني «إن فُقدتُ أعيدوني لها».. في حين رفضت أنا أن ألبس دبلة مثله وكأن كُل ما بداخلي يرفض الاعتراف بتلك الخطبة.. حتى أصبعي تتبرأ منها، تحججت بأن الألوان ستفسدها لكني أظن أنها كانت هي ما سيفسد الألوان، ستقيدها.. ستمنعها من التحليق في سماء الإبداع.

ليقطع تفكيري وصمت يمَّان وألحان باولو صوت أقدام مالك الذي يدخل من الباب ليتأمل ذلك الغريب الجالس أمامي بفنجان قهوته الفارغ الذي يدل على وجوده هُنا منذ فترة ليست بقليلة ليقول وهو ينظر له فقط:

-اتأخرتي، قلقت عليكِي.

لأنظر ليمَّان وأهُم بالكلام ثم يقاطعني يمَّان وهو يمد يده لمالك ويقول بنبرة ثقة أو تحدٍّ:

-يمَّان.

ينظر مالك ليده الممدودة ويتأملها وكأنه يرفض حتى أن يشاركه يدًا بها دبلتي، جزء مني.. يرفض أن يشاركه شبحي القابع بين أصابعه لأحاول تخفيف وطأة الموقف لأقول:

-يمان، دا مالك.. أنا وهو صُحاب من زمان جدًّا..

ليكمل مالك قبل أن أتوقف عن الكلام كمن يحاول أن



يكسب حربًا قبل نشوبها:

-ومخطوبين.

لينظر يمَّان بثقة ويقول كمن يعلم جيدًا كيف يبارز بالحروف:

-غريب، مع إنها مش لابسة دبلة.. شكلكم لسة مخطوبين جديد، مبروك.

فنظر لي يمَّان وهو يُكمل ما بدأه ليقول:

-حبيت لوحة جدًّا، وحبيت آجي أشوفها تاني.. بس جيت متأخر ولما رؤى شافتني محبتش تكسفني.

لأقف أتأملهما بصمت.. أحدهم يحاول أن يشعر نفسه بالأمان على الرغم من اسمي الذي يحتضن أصبعه.. والآخر واقف بثقة رغم اللاشيء، ليس لديه سوى اتفاقنا السري على استخدام لغتنا الخاصة.

ليقترب مني يمَّان، أو هكذا ظننت.. قريبًا للغاية ليقول:

-سأراكِ قريبًا لنتناقش أكثر عن اللوحات، أنا لدي النصف الآخر من القصة.

لأتأمله باستغراب.. وأنا أفكر أي قصة يقصد؟

لينظر لي مالك وهو ينتظر مبررًا لكُل شيء، ولكن بداخل عينيه تردد.. ربما هو خائف من مبرري.. ولكنه



غاضب، يشعر بالتهديد والألم والغيرة ولكن الغضب كان غالبًا على كُل شيء.. جعل يتحرك وكأن كُل خطوة من قدميه تعبر عن الزلازل القائمة بداخله، وكأنه اختل توازنه ويحاول تثبيت قدميه بالأرض.

ولكن بعد دقائق من الصمت ذهب مالك دون أن يحاول معرفة أي شيء، ودون رغبةٍ مني بالحديث.. ذهب وكأنه يهرب من ذلك المكان الذي لطالما فضلته عليه، من شبح لوحةٍ تتربص به ورائحة عطر رجل مازالت تفوح في المكان وكأنها تعلن احتلالها لكل ذرات الهواء وتجعله يتساءل ماذا عن فتات قلبها؟.. ذهب ورجعتُ للبيت بعد ميعاد مع الحقيقة والقدر، وضعني القدر اليوم في مواجهة معه، كان يجرفني إلى النهاية تحديدًا في ذلك اليوم الذي قررت فيه إصلاح علاقتي بمالك وكأنه يعلن سلطانه على الأحداث.. وكأنه أخيرًا رآني شخصًا جديرًا بالتحدي، ووجدت نفسي شخصًا قابلًا للهزيمة.. الهزيمة الرائعة التي تجعلك تستمع إلى مقطوعة موسيقية مرارًا وتكرارًا فقط لأنه شاركك سماعها غريب تتمنى لو تلقاه مجددًا.. تلك الهزيمة التي تشعرك أنك مُسير ولستَ مُخيرًا كما تتمنى.. وقفت في الشرفة ليلًا أتأمل الأسفلت المزدحم بالسيارات والمحلات التي شرعت أبوابها للغرباء وكأنها تحولت ليلًا



لعاهرة، والسماء الملبدة بالغيوم.. مر يومي على هذه الوتيرة حتى زارني سلطاني فجرًا..

وبعد نوم متقطع استطاع جسدي أن يُلم بحاجته من الاسترخاء أو على الأقل تأقلم بما استطعت ان أعطيه له اليوم.. لم أنوِ النهوض من فراشي اليوم، ليست لدي الطاقة لمواجهة هذا العالم أبدًا.. أريد بعضًا من السلام والهدوء، خارت قواي.. هلكتُ من التفكير ومحاولاتي المُستميتة في ادعاء أن كُل شيء على ما يُرام.. أريد أن أصرخ أنه لا شيء بخير، أنا لستُ بخير، وحياتي لو أرادوا إيجاد مفهوم آخر للفوضوية ستكون هي الاختيار الأمثل.. لا شيء كما من المُفترض أن يكون.. أشعر بالغضب والسخط على هذا العالم، لماذا عليه أن يكون بهذا السوء؟.. لماذا يختبرنا دائمًا بالأشياء التي إن خسرناها نخسر ذاتنا معها؟ هل يُريد أن يلغي ماهيتنا ليحولنا مثله إلى جماد لا قلب له ولا روح؟ رُبما هو يُؤلمنا لأنه يتألم.. لأنه تمنى أن يتنفس ويعشق ويُحب ولكنه لم تكن لديه تلك الفُرصة فقرر أن ينتزعها منا جميعًا، لا.. أنا سعيدة ولا أستطيع أن أجعل مالك سعيدًا، وها أنا أكتب تعاستي وتعاسته وأفكر برجل لا يجمع بيني وبينه سوى خرافات أتمنى لو أنها تجمعنا حقًّا.



أردت أن أنتزع تلك الأفكار من عقلي أو انتزاع عقلي نفسه أيهما أقرب، لم أشعر بذلك الثقل بروحي من قبل وكأنني أجد صعوبة حتى في التحرك وكأنه يكبلني.. أردتُ الاسترخاء وحسب، فقررت أن أشاهد مسرحية أملًا في أن أندمج معها وأضحك، ولكني لم أضحك ولو قليلًا، تذكرتُ عندما كُنت أتفرج مع أمي على المسرحيات وكيف تضحك وكأنها وُلدت للتو ولا تعرف ماهية البُكاء.. هي التي لطالما بكت مساءً واستيقظت صباحًا كأن شيئًا لم يكن، وكأنْ لم تخيم على قلبها غيمة حُزن ولم يمطر قلبها وجعًا.. ولكنني عندما كبرت علمت أن الضحك هو طريقة أخرى للنحيب.. فلطالما ضحكت على أشياء لم تجعلني أبتسم ولو قليلًا وكأنها تستجدي الضحك والسعادة أن يدخلا لقلبها الحزين.. كل تلك الذكريات هجمت علي وأنشأت بداخلي رغبة في البكاء، ولكن انتابتني تلك الرغبة الملحة لرسم أبطالي الذين أشعر أنهم يبادلونني نفس الشعور وكأني بطلتهم.. رُبما يقضون ليلهم يرسمونني أيضًا.. وبالفعل بدأت برسم الرجل وما هي إلا دقائق حتى شعرت بألم غير مُحتمل.. أنا لستُ هشة، وقدرتي على التحمل عظيمة، هكذا كانت تقول أمي دائمًا، ولكني الآن أشعر بأن داخلي ينفجر.. وليس مُجرد ألم بل



داخلي يُعتصر وكأني أحتضر، لا أحد معي، جميلة ليست بالمنزل، حاولت الوصول لهاتفي وهاتفتُ الإسعاف ولكن أصدقائي السريين قرروا أن يزوروني مُجددًا.. لا أتذكر ما قلته، وهل أعطيتهم العنوان أم لا.. ولكني رأيت تلك الفتاة تقول: «إيروس، الآن موعدنا».

أعتقد أنني أرحل عن هذا العالم للأبد.. وبينما أفقد وعيي أو حياتي شعرت بالسكينة وكأنني ولدتُ أنتظر تلك اللحظة، وأغمضت عينيَّ في سلام وكأن الألم اختفى، أو كأنه لم يكن قَطٌّ.

* * *

يمَّان

هل حقًا سأخبرها عن آيديا أم هي مجرد محاولة مني للفت انتباهها؟ ولماذا أحاول لفت انتباهها وهي في علاقة مع رجل آخر؟

مهلًا.. هل أنا الرجل الأول ليكون هُناك رجل آخر.. هُناك شيء يحدث ولا أعرف ماهيته.. ولكن كل ما أعلمه أنني بحاجة أن أنام بعد ذلك اليوم الطويل المليء بالأحداث.. المليء ببسنت وأبو عبده ورؤى.



وما هي إلا دقائق حتى غفوت واحتلت آيديا وحبيبها عالمي من جديد، ولكن أظن تلك المرة لديهما ما يقولان لي وأقبلت عليهما مُستسلمًا وكأنهما أصبحا جزءًا من روتين نومي.

*** في القرن الـ ٥ قبل الميلاد ***

في مدينة أثينا وخلال الحروب اليونانية الفارسية التي تصل إلى أوجها.. لم يستطع الدم والكره والحرب، لم يستطع الموت أن يمنع الحُب قَط.. لم تستطع السلطات الحاكمة أن تحكم القلوب وتمنع وقوع البطل الفارسي «إيروس» في عشق «آيديا» ابنة حاكم اليونان وأن تقع هي في عشق عدو أبيها الأساسي.

كانت مُهمة إيروس هي أن يأخذها أسيرة، ولكن كان للقدر مخططات أخرى.. لم يستطع القدر أن يختار بين عبقرية اليونان وفنهم وقوة الفُرس وسحرهم، فجعل محاربهم الشجاع يقع أسير ابتسامة أميرة اليونان.. وكأن القدر أراد إنهاء هذه الحرب.. ولإنهائها فقط يستطيع الحُب فعل ذلك، ولكن ما لم يعلموه أن الحُب رُبما سيكون هو سبب نهايتهم.



إيروس

بعد أعوام من الحروب الفارسية اليونانية وخسارتنا بقيادة دارا ملك الفُرس أراد داريوس الانتقام، وبالفعل بدأنا في الغزو الفارسي الثاني لليونان، وحاصرنا أثينا وكدنا ننجح في الاستيلاء عليها.. كانت مهمتي محددة.. لطالما أردت أن أقتل ملكهم وأقتل ألم الماضي معه، وكأنني سأقف فوق جثته كما أقف على أطلال الوجع.. يومها سأخبر الوجع أنني انتصرت، ولكن داريوس كانت له مخططات أقسى من القتل.. كان يُريدني أن آخذ أميرة أثينا كأسيرة، أن أدمر كبرياءه هو الذي لم يستطع حماية مملكته ولا فتاته الصغيرة.. وبالفعل بدأت مخططاتي لأسر أميرته، قتلت كل من وقف أمامي من رجال، وقطعت كل ما عرقل طريقي من شجر، وتحديت حتى أصل إلى مرادي شتاء أثينا القارس وثلوجها التي كأنها اتحدت مع أميرتها وتحاول حمايتها.. حتى وصلت ورأيتها؛ امرأة رائعة الجمال شعرها خيوط ذهب، وجهها وجه القمر، وعيناها لون الشمس، صوتها موسيقى تُعزف، تنظر لي في كبرياء وبيدها سكين.. وجدت بعينيها



دمعتين هاربتين وهي تقرب الخنجر منها.. امرأة تفضل الموت على الأسر، امرأة لم تصرخ ولم تستجدِ ولم تبكِ.. جديرة بالاحترام.. وجدت قدميَّ ترجعان خطوة للوراء وكأن كبرياءها قد استحوذت على الغرفة فلم يعد لقدميَّ مكان، نظرت لي وسألتني:

-كم قتلت من رجالي؟

أجبتها بصوتٍ مرتجف.. امرأة تواجه الموت بالموت، تحصي عدد من قُتل في سبيلها حتى تشعر أنها لن تضيع ميتاتهم هباءً، لأخبرها وكأني أرحمها من الحصر:

-ما قد لزم حتى أصل للكِ.

اقتربت وهي تضحك ومازالت هناك دمعتان هاربتان على خدها وخنجر موجه لقلبها بيدها لتقول وبعينيها غضب لم تستطع إخفاءه:

-مؤسف أنك لن تنال مرادك..

ثم أكملت وعيناها ترغرغتا بالدموع:

-ليتك لم تقتل كل هؤلاء الرجال، هل تعلم كم طفلًا ينتظر عودة أبيه اليوم؟

تذكرت أبي، تذكرت اليوم الذي قتل فيه أبوها أبي في الغزو الفارسي الأول.. تذكرت كرهي له لأعوام..

قالت وهي تقترب أكثر:



-هل تعلم كم جيلًا من الأعداء قد خلقت لاسمك اليوم؟
هل تعلم كم عدوًّا أصبح لأطفالك الذين لم يخلقوا بعد؟

شعرت بأنني لستُ أفضل من أبيها، أنا الذي قتلت رجالًا فقدت القدرة على إحصائهم منذ أعوام، أنا الذي حملت سيفًا قبل أن أبلغ طوله.. ها أنا أقف أمام امرأة تقامر بالموت وتواجهني بقوة لم أجدها في جنودٍ رغم دروعهم وتسلحهم الكامل.. اقتربت منها وإذ بها تقرب الخنجر من صدرها، وفجأة تحولتُ من رجل يحاول أسرها لرجلٍ تم أسره بعينيها، ابتعدت وكأنني أحاول إبعاد الخنجر عن قلب يحمل بداخله من الحُب والرحمة ما يكفي لإنهاء حروب العالم وكأنها حمامة السلام الذي سيعم على كوكب لطالما وجد سكينته في إراقة الدم.. ابتعدت وأنا أهمس: «أرجوكِ.. لن أمسَّك بسوء» لتنظر لي بسخرية:

-لقد قتلت رجالي واحتللت وطني.. هل تظن أن الموت هو السوء الذي أخافه؟

لأتقهقر للخلف وكأن حروفها كانت سهامًا تصيب جسدي فتعجزني عن الرد أو القتال.. تقهقرت وأنا أحاول الحفاظ على حياة فتاة لا أعلم عنها شيئًا سوى أن الآلهة ستلعنني إذا مسستها بسوء.

لأهم بالرحيل لتقول وكأنها تتحداني:



-أيها الجبان، تعال وأنهِ ما أتيتَ لأجله!

لأنقضَّ عليها قبل أن تنهي حروفها لتسقط أرضًا فآخذ منها خنجرها وأنا أخبرها بسَكينة وكأنني أفقدتها حق الموت:

-سأراكِ مجددًا يا آيديا، إيروس.. تذكري ذلك الاسم جيدًا.

لتنظر لي بعدم استيعاب، وخوف ممتزج براحةٍ خفية فخسر هاديس –إله الأموات- اليوم مقامرته ضدها..

لأرجع إلى داريوس وأخبره بوجه لم يعهد الكذب ولأنني أعلم أنه لم يرَ آيديا من قبل:

-لم أستطع أسرها، قد ربح هاديس..

لينظر لي كأسد غاضب فقد صيده الثمين وانتقامه الذي انتظره لأعوام وهو يصرخ:

-قتلتها!

-بل هي فضلت الموت على أن تُؤسر.

فنهض بغضبٍ وقرر أنه سيحرق أثينا عن بكرة أبيها غدًا وكأنها فقدت قيمتها بفقدان آيديا..

كُنت أعلم أنه سيتخذ قرارًا بتلك الخطورة والطيش؛ ولذلك سبقته بخطوة، قد تركت جنديًّا من جنودي المخلصين يراقبها، وأخبرته أن يأخذها في الوقت



المناسب إلى كوخ خفي كان تابعًا لأبي حين احتلوا الأراضي اليونانية لأول مرة.. لا أعلم لماذا، ولكنني شعرت أنني مُجبر على حمايتها وكأنها خليفة أبولو على الأرض، ويجب تقديسها كما نقدس الإله.

و قد كان، أخبرت أهل أثينا أن يخلوا الأراضي قبل أن أحرقها، أتذكر نظراتهم الممتنة رغم أنني سأحرق بيوتهم، فقط لأنني لم أحرقهم معها.. قررت أنني لن أقتل مدنيين مجددًا، فقط سأقتل من يجد الجسارة الكافية لمحاربة إيروس العظيم ولن أتهاون معه بمقدار ذرةٍ.. أحرقنا أثينا وقد ثار بوسيدون –إله البحر- على ما قد حل بمدينته الجميلة، ثارت الأمواج وقد أعلن غضبه وسخطه..

ما إن عاد داريوس إلى ثكنته حتى ركضت إلى كوخي، وجدتها.. تجلس تتأمل بوسيدون وهي تطلب منه المغفرة والعفو عن مدينتها وحولها الجندي المخلص ألاما.. اقتربت منها وأنا أهمس:

-لقد حرقنا أثينا لذلك هو غاضب..

لتنظر لي بغضب وثوران عهدته منها وتقول:

-كم قتلت من شعبي؟

لأهمس لها:



-قد أخليت المدينة قبل حرقها.

لتتحول نظراتها الغاضبة إلى دهشة وهي تقول:

-هل نبت قلبك؟

لأضحك قليلًا من تعبيرها وأقول:

-لقد قابلتُ فتاة لو لم أكن أعلم أباها لظننت أنها ابنة ديميتر -إله الخصوبة والزرع- زرعت بي بنظرة ما انتزعته مني الحياة مجددًا.

-إن لم أعلم براعة الفُرس في المبارزة بالحروف كما السيوف لظننت أنك وقعت في عشقي..

لأقول وأنا أعطيها خنجرها الذي أخذته منها باكرًا في يدها وأمسك يديها وأقربهما لقلبي لتحاول سحب خنجرها وتنظر لي بخوف لأردد:

-أعلم فتانة الأثينيين ولكن إن لم أعلم رقة قلبك لظننت أنكِ وقعت في عشقي.

لتسحب يديها بعنف رقيق خوفًا من أن يجرحني الخنجر لأضحك وتنظر هي بغضب خجول..

لطالما أخبرني أصدقائي عن العشق من النظرة الأولى ولكني لم أؤمن به أبدًا، ولكني حين رأيت آيديا رأيت جانبًا لم أره في العالم، فأنا لم أعهد من العالم سوى إراقة الدماء والحروب والقتل والمكائد والعنف، ولكني لم



أعهد ذلك الشعور رغم علاقاتي النسائية المتعددة، لم أشعر بين أحضان مئات النساء بما شعرته فقط أمام عينيها، جنون أعلم ومُستحيل.. ولكني جندي محارب أضع روحي عند الخط الفاصل بين المُمكن والمُستحيل، أنا مُحارب أنتزع ما أريده رغم استحالته.. ما هي المخاطرة في المُمكن؟ يبدو أن قدري أن أحارب دائمًا لأجل ما أريده.. تجلس أمامي مُستكينة وكأنها ليست المرأة التي كانت توجه خنجرًا لقلبها، فقط لأنها علمت بوصول إيروس الذي أرهب اليونان كُلها.. امرأة لم تخف من بطشي وواجهتني.. امرأة تشبه أثينا بكل ما تحمله من سحر وجمال وغموض وغضب خفي وخوف ودلال لمعرفتها كم يطمع فيها الغرباء، امرأة تشبه بوسيدون الآن تدندن أمامه بصوتٍ خافت ولكن تأثيره يكاد يكون أقوى على مسمعي من الرعد، أكاد أستطعم صوتها وعينيها الإلهيتين وكأنها تعلم أنها ربحت حربًا لم يربحها مخلوق قبلها وتحتفل، تعلم أنه مثلما احتللت موطنها احتلتني وكأنها تثأر لأثينا، احتلت شيئًا بداخلي يصعب الوصول له، أو رُبما هي اكتشفته ولم تحتله؛ لأنه لم يكن لمخلوق قبلها حتى تنتزع حق ملكيته. أظن أنكِ دخلتِ إلى عروقي بسرعة السم الملكي وقوته، ولن أشفى منك جميلتي



وأتمنى ألا أشفى.. إن كانت نهاية أسطورة إيروس فلتكن نهايته بسم عشقك المفاجئ كالقدر والموت، وبسرعة غضب أمواج بوسيدون يا أثينيتي المتمردة.

لتسألني وكأنها انتبهت فجأة:

-هل يعلم داريوس إنك تحمي الفتاة التي أحتل أثيا لأجلها؟

-مهلًا! كيف؟

لتقول وكأنها لا تبالي بوقع ما قالته على روحي.. شعرت بنار تقتحم حواسي وتكاد تخرج من كُل فتحة مُمكنة بجسدي وستحرق أثينا وستحرقني وتحرقها.. حاولت أن أهدأ لأفهم:

-داريوس يحبني منذ الغزو الفارسي الأول لليونان، وحين حاول أبوك قتلي قتله، وليس كما يُذاع بأن أبي مَن قَتَله، تمكن من أبيك رغم قوته وشجاعته، ورغم حداثة سن داريوس وقتها، ليس لأنه أقوى منه بل لأن أباك أبدًا لم يتوقع خيانته.. ولكن حين طلب مني الزواج به لم أرضخ له فأقسم على قتلي، ولكني كُنت أنتظرك.

لم أستطع تصديق كُل ما قالته، ولكني حين أتذكر غضب وألم داريوس حين أخبرته بموتها كُنت أعلم أن لها أهمية أكبر من كونها ابنة الملك، شعرت أن أعوامًا من



عُمري ضاعت في الكراهية للرجل الخطأ، لم أرد تصديق ذلك لأني لم أرد تصديق أن صديقي قتل أبي لأجل الفتاة التي وقعتُ في عشقها منذ النظرة الأولى.. أهي بداية لعنتي؟ لأسمعها تقول: « كُنت أنتظرك» ليتوقف كُل شيء للحظات لأقول:

-تنتظرينني!

-نعم، كُل العرافين أخبروني أنه سيأتي داريوس من أجلي، ولكن سينقذني منه من أفقده.. من كان ليضحي بروحه لينقذه.. وبالطبع لأنني أعلم أن داريوس قتل أباك أمامي فلم يكن سواي من يعلم حل اللغز.. حين علمت أن إيروس العظيم هو ابن ذلك الفارس الشجاع وأنك تسعى لأسري كُنت أعلم أنك تظن أن أبي هو من قتل أباك ولكن هكذا ذاع الخبر وبالطبع أبي لم يكن لينكر فضل قتل ذلك المحارب الذي لم يستطع إيقافه أفضل وأمهر المحاربين، الذي بث الرعب في قلوب أشجع المحاربين، الذي حاول قتل وحيدته.

-و لكنك كُنتِ تحملين خنجرًا، ماذا لو لم أحاول منعك؟

-كُنت ستفعل، رأيت عينيك منذ أول لحظة.. تلاقت نظراتنا.. شعرت بأنك منقذي، رغم بأسك وقوتك ولكن



رقت عيناك لأعلم أنك إن حاول العالم كُله قتلي ستقف أمامي لتحميني من طعناتهم، وتأكدت حين رأيت جنديك يحوم حولي.. تحققت النبوءة، أنت منقذي يا إيروس ولن يمسني سوء ما دُمت معي.. كان يجب أن أخبرك الحقيقة بعد التأكد من أنك الشخص المعني بالنبوءة، أعتذر لقتل أبيك.. كان جنديًّا شجاعًا ولكن تمت خيانته.

-لماذا تعتذرين، كان سيقتلك!

-إيروس، لقد هددني نصف ملوك العالم بالقتل لأنهم أعداء أبي وهددني النصف الآخر حتى أقبل الزواج بهم.. التهديد بالقتل أصبح روتيني الصباحي، صدقني لم يعد يحرك بداخلي ساكنًا.. الخوف هو العدو الحقيقي، إن لم تخف فلن يستطيع أي سوء أن يصيبك.. هكذا تعلمت من أبي كُل خدع المبارزة وأحيانًا كُنت أغلبه حتى.

لأقف وأنا أبتسم: بارزيني إذًا أيتها المحاربة الصغيرة.

لتقول: أخاف أن أغلبك فتفقد كبرياءك لما تبقى من رحلتنا معًا..

لأرفع لها حاجبًا متعجبًا من ثقتها لآخذ سيف ألاما الذي كان يحوم حولنا وأعطيه لها وأرفع سيفي لأحارب به سقوطي في هاوية عشقها؛ هي التي غيرت مجرى



ذكرياتي ومعتقداتي وكرهي، والحقيقة التي ترعرعت عليها، لأحارب رغبتي في قتل داريوس ومحاولة التفكير فيما يجب فعله لأحميها، وحتى أنتقم منه، ولأتأكد من صحة كلامها، ولكن يصعب التفكير وهي حولي في أي شيء سواها، ستحاسبني الآلهة على تلك الخطيئة حتمًا لو ارتكبتها، لتبتسم وهي ترفع فستانها قليلًا حتى تتمكن من الحركة بحُرية وتكشف عن قدمين أعماني بياضهما الناصع.. لأغمض عينيَّ قليلًا وأنا أستجمع تركيزي لأحرك رأسي معلنًا عن بداية مبارزتنا لتتأهب فأضحك، لم أستطع منع نفسي من الضحك من فكرة أنني سأبارز امرأة لا تكون إلا آيديا.

تبارزنا حتى هلكنا، بارزنا الماضي والمكائد، بارزنا الفراق وتأكدنا من قوتنا التي لن يستطيع أحد مجابهتنا إذا اتحدنا.. لم يكسب أحدنا ولم ينهزم، ولكن الحُب قد انتزع قلبينا من ضلوعنا.. هذا المؤكد، تأملنا الغروب وقد هدأت ثورة البحر وكأن بوسيدون قد وجد السلام في مبارزتنا الودية، لم أعلم هل بالفعل لم أغلبها أم لم أرغب في هزيمتها، ولكن بكل الأحوال هي محاربة ليست بقليلة أبدًا.

كان يجب أن أرجع لداريوس حتى لا يشك بشيء حتى أتبين ماذا سأفعل به.



-يجب أن أذهب الآن حتى لا يشك داريوس بشيء، ولكنني سأعود حتمًا.

-توخَّ الحذر، هو لا يجابهكم شجاعةً ولكنه خائن.

لأذهب إلى رجل ظننته صديقًا من عند امرأة ظننتها عدوَّتي.

* * *

آيديا

-آيديا، جميلتي.. أميرتي، اشتقتُ لكِ كثيرًا..

-إيروس، خِفتُ كثيرًا من أن يُصيبك مكروه.

-عزيزتي، المكروه الذي قد يُصيبني هو أن يُصيبك أنتِ شيء.. فقط ابقِي بخير وسيكون كُل شيء على ما يُرام.

-حاول مجموعة من جنود داريوس الهجوم على أثينا مجددًا، علمت من وصيفتي.

ليقترب وهو يقبل جبيني ويقول بصوتٍ أقرب للهمس:

-لا بأس، لا يستطيع أحد أن يمسني بسوء سواكِ.

لأسأله بخوف الفتاة التي ترعرعت في حماية هؤلاء الجنود:



-كم قتلت منهم؟

ليقول بحزم القائد الذي طالما أرهبني وأرهب اليونان بأكملها، إيروس ينسى أمري حينما يكون في أرض المعركة.. عندما يلمس سيفه يتحول من ذلك الرجل العاشق إلى رجل لا تعلم الشفقة لقلبه طريقًا:

-ما قد لزم حتى لا أخسر أحد رجالي.

أحاول استجداءه وكأنني بسلطاني على روحه يجب أن يكون لي نفس المقدرة على حماية رجالي منه، وأن أسيطر على ذلك الوحش القابع بداخله.. ذاك الذي يدمر ويقتل دون أن يرف له جفن.. كيف يمكن لذلك الرجل الذي يحمل يديَّ الآن بعشق أن يكون ذاته الذي يحمل سيفه ويطعن به قلوب رجالي؟!

-إيروس، هذه الحرب غير مُنصفة، أنا ضحيتها دائمًا.. يتمزق قلبي بين أهلي وجيشي الذي رُبما أكون قائدته يومًا وبينك، أنت عشيرتي وقبيلتي.. لماذا لا تتهاون معهم من أجلي؟ نُريد أن نمضي يومًا في سلام دون أن تبكي امرأة أو طفل لأنه فقد أباه.. يجب أن تعلم أنكم أبدًا لن تستطيعوا احتلال أثينا ولكنكم تحتلون الجروح.. يحفر اسمكم بندوب في قلب كل طفل وامرأة.. سيكبر جيل جديد من جيش اليونان على كراهيتكم، وليس فقط لأنكم



أعداؤهم بل لأنه يوجد على مناصبكم بقايا دماء أهله.

ليقول وكأن كل حروفي لم تمر على قلبه:

-تعلمين أنك تطلبين المُحال جميلتي.

لأقول بيأس لم تستطع نبرة صوتي إخفاءه وأنا أعلم أنه سيأتي اليوم الذي سنتواجه فيه معًا ويجب أن أختار يومها بينه وبين محبوبتي أثينا:

-أعلم إيروس أنني أطلب منك المُحال.. أعلم أن المُستحيل طريقه مُمهد أكثر من طريقي ليديك، ولكني لا أستطيع التنازل عن ذلك المُحال ولا عنك.

ليبتسم وكأنه يبارز بابتسامته حزني فيغلبه ويغلبني:

-لا بأس جميلتي، فأنا لا أحب الطُرق الممهدة على كُل حال.. أنا مُحارب، أنتزع ما أريده.

كانت كلماته مُطمئنة لي كعشيقة، ومُرعبة لفتاة ولدت وترعرعت على حُب أثينا، أثينا بسحرها الخلاب وبحرها الذي طالما رميت بأمواجه كُل ما بداخلي.. مثلما نجح في احتلال أرضي قد احتل قلبي، فكيف سأحارب مستعمرًا استعمر قلبي؟! استعمر كُل أسبابي للحياة لتصبح هُو.. هل سأحاربه حتى أتحرر من احتلال جسده المُحبب إلي لأرض وُلدت عليها لأكون أميرة لحاكم قوي، كيف سأحمي أثينا وقلبي من رجل هو مفهومي للأمان؟



قد مرت شهور على وجودي بهذا الكوخ أنا وألاما، شهور على كوني أميرة مدينة لا تستطيع حماية شعبها، شهور أتامل بحر أثينا وهو يتحول لحمرة الدم، لأرضها وخضرتها ورائحة زرعها لتتحول لرائحة الموت، شهور أنتظر عدالة إيروس التي وعدني بها.. شهور أنتظر انسحاب داريوس من موطني، شهور ليست كثيرة حتى ينفد صبري وليست قليلة حتى أستطيع الانتظار أكثر.

كُنت أنظر له وبداخلي كُل تلك الأفكار حتى حدث ما لم يكن بالحُسبان أبدًا.. لأصرخ بهلع: إيروس.

*** الآن ***

استيقظت أتصبب عرقًا بفزع وكأني أنا من كُنت أصرخ وليس آيديا.. ماذا أصاب إيروس ليكون بعينيها ذلك الهلع والرعب؟ وما علاقتي بما أصابه؟ وما علاقة رؤى؟ ولماذا لا يخبرانني وحسب بماذا حدث، أقسم أنهما سيكونان سبب قتلي يومًا ما، نهضتُ مسرعًا لأفتح جهاز اللاب توب وأحاول معرفة قصتهما، ربما هما أسطورة مشهورة أو قصة حُب عالمية مثل روميو وجولييت وقيس وليلى.. ولكني لم أجد شيئًا سوى حروب يونانية فارسية بأسماء مختلفة، وما هي إلا دقائق حتى هاتفني مُنير وهو يخبرني أن لديه حالة طارئة بالطريق وتحتاج تدخلًا



جراحيًّا فوريًّا.. لأقفز من مكاني بثياب المنزل.. فدائمًا أترك بمكتبي ملابس احتياطية لطوارئ مثل هذه.. أحيانًا لا يكون لدي رفاهية الوقت حتى لأرتدي ملابس ملائمة.. ذهبت بالبيجاما لأدخل أنا وعقلي المُشتت بروى وآيديا وإيروس لأجد مُنير يخبرني:

-دخلت دكتور جراح تاني بدالك.

وأقسم أني لو كُنت في حال أخرى لهدمت المستشفى فوقه من الغضب، ولكني كُنت مُشتتًا لدرجة أني أردت شُكره.. فقط أردت أن يكون مريضنا بخير، طلبت أن أراه فارتديت ملابسي وتعقمت ودخلت لأجد مريضنا ليس إلا «روى»..

شعرت وكأنني توقفت عن التنفس للحظات حين رأيتك أنتِ بردائك الأزرق ودمك المتناثر وكأني تحولت من دكتور لرجل يرى دمًا لأول مرة.. تحولت مجددًا لطالب بكلية الطب وهو يرى أمامه أول جرح مفتوح ويشعر بالهلع.. بقيت أراقب بسنت وكأني لا أتذكر ما تعلمته في سنوات الطب التي درستها.. لأنظر بخوف لم أستطع إخفاءه إلى الأجهزة وأتفقد أجهزتك الحيوية دون أن أقترب منكِ وأقول لبسنت:

-حالتها كانت إزاي.



لتنظر لي وكأنها تراني لأول مرة.. وتقول: جات في عربية إسعاف لوحدها، تقريبًا تعبت وكانت لوحدها ف كويس إنها قدرت تتصل وإلا كانت ماتت..

لأغمض عينيَّ وكأني أحاول طرد الموت من الغرفة، وكأني أحاول أن أترجاه ألا يقترب منكِ.. تذكرت أمي وموتها، بقيت أدعو كما كنت أدعو وأنا طفل في السابعة بصمت.. أتاملك دون القدرة على لمسك أو إنقاذك مثلما كُنت طفلًا ولم أستطع إنقاذ أمي، إحساس العجز ذاته والخوف ذاته وكأني أفقد أمي للمرة الثانية حتى بعدما أصبحت من أفضل الأطباء أقف عاجزًا أمام جسدك النحيل الضعيف

لأقول بصوتٍ مسموع:

مُحاربتي الصغيرة، مازالت أمامنا حرب كبيرة ولا أنوي خسارتها أبدًا.. لا بأس.. ستكونين على ما يرام.

قلت ذلك وبسنت نظرت لي بقسوة وهي تقول: «اخرج، عايزة أركز وأنا بقفل الجرح».

لأتفهم غيرتها.. ونظرت لها بشُكر.. لم أعلم هل تنبهت أن من تحت يديها ما هي إلا فتاة المرسم الذي أخذتني إليه عنوة وكأنها تُسلمني للقدر بيديها لامرأة أخرى.. امرأة يحاول أن يجمع بيني وبينها كُل شيء



ويباعد بيننا كُل شيء بالقدر ذاته.. كم هي قوية بسنت! ترى بعين الرجل الذي تحبه حُبًا خفيًا لامرأة لا تكون سوى مريضتها وحياتها بين يديها وتفعل ما بوسعها لإنقاذها.. أنا أكنُّ لبسنت أهم مما تريده، أنا أحترمها وأقدرها.. وأحيانًا يكون الاحترام أكبر وأهم من الحُب.

لأخرج وأجد صوت منير خلفي يقول بنبرة اعتذار:

-خوفت تلمسها تشوف رؤية تاني ومتركزش، أول ما عرفت إنها هي كلمت بسنت وفي دقايق كانت هنا.. كان لازم تدخل فوري.. مكنش في فرصة نراهن على حاجة مش متأكدين هتحصل ولا لأ.

لمست كتفه بود وكأني أشكره على ما فعله.. فهم وأغمض عينيه قليلًا، جلس بجانبي في صمت يتأملني حتى قلت له:

-كلم خطيبها.

لينظر لي مُنير بجدية:

-مخطوبة!

-هي نفسها مش مُعترفة، بس مخطوبة آه.

لينظر لي بلوم وكأني لا أعلم ما أفعله ولكن بداخلي شيئًا يجعلني أشعر أنني على الطريق الصحيح، نحنُ لا نخطئ.. ليس هُناك نحنُ بالأصل ولكن ذلك الشيء



الغامض الذي يربطنا ليس الخطأ بل هو الشيء الوحيد الصحيح بين كل هذه الأخطاء..

-بحاول أفتح الموبايل بس مش عارف ف مش هعرف أتصل بحد، هنضطر نستنى لما حد يتصل بها.

وما هي إلا دقائق حتى وجدنا أحدًا يهاتفها واسمه «جميلتي».. توقفت قليلًا وأنا أتذكر أن تلك هي الكلمة التي قالها إيروس لآيديا.. وقد رد مُنير وبحرفيته المُعتادة يخبرها أن رؤى مريضة وقد خضعت لعملية منذ قليل وهي بخير لكن يجب أن تأتي.. وما هي إلا دقائق حتى وصلت جميلتها راكضة باكية وهي تهلوس باسم رؤى وتصرخ بمنير: «إزاي محدش يتصل، إزاي تدخلوها عمليات لوحدها؟ رؤى بتخاف من الحقن».. وتبكي حتى يرد عليها.. ولأول مرة أجد مُنير يتخلى عن حرفيته المُعتادة وهو يقول بنبرة لم أعهدها منه: «متقلقيش هي مخافتش».. لتبكي جميلة ويجلس بجوارها مُنير يخبرها بأنها ستخرج من غرفة العمليات خلال دقائق للإفاقة، ثم تستطيع رؤيتها حين تذهب لغرفة عادية..

اكتشفت جانبًا بمنير لم أره من قبل.. منير الدكتور الأكاديمي الذي يخبر الأب أن ابنه مات بمنتهى الاحترافية.. يقذف بقلبه قنبلة ستبقى شظاياها بشرايينه



مادام يتنفس دون أن يُبالي أو دون أن يتألم حتى.. الدكتور الذي لطالما قال: لكي تكون طبيبًا جيدًا لا بد أن تفقد شفقتك وقلبك، أنت الذي ستودع مرضاك وسيبرد دمهم بين يديك يجب أن تكون بالقوة والقسوة الكافية، حتى أقسى من الموت؛ حتى لا يغلبك أبدًا وأنت تنقل خبر موته كالنشرة الجوية لأهله وتشهد أعاصيرهم وانشقاق كوكبهم للأبد، ثم تذهب لغرفتك وتحتسي فنجان قهوة وكأنك مريض انفصام، ولكنه الآن يجلس بجوار فتاة يحاول أن يطمئنها أن صديقتها بخير وأنها لم تخف من حقنة.. وجدت كل هذا ساخرًا فلم أستطع سوى أن أفقد أعصابي وأضحك لينظرا لي بغرابة وأنا كُل ما أقوله: «أنا آسف، مش قادر أبطل ضحك»..

لينظر لي منير بغضب وكأنه يقول كيف لي ألا أحترم مشاعر تلك الفتاة الرقيقة الجميلة حقًّا.. وحتى أحاول التحكم بمشاعري أخبرت جميلة: «اتصلي بمالك»..

فتوقفت عن البُكاء ونظرت لي مطولًا وكأنها تتساءل كيف لي أن أعرف من هو مالك.. أظنك يا محاربتي الصغيرة احتفظتِ باتفاقنا لنا فقط.. لم أستطع منع نفسي من القول بصوتٍ مسموع: « لا تخافِي، إنه سرنا الصغير».



ينظر لي مُنير وهو يغمز ويحرك رأسه بتساؤل عن أي سر أتحدث لأنظر لجميلتها مطولًا.. وأنا أتذكر آيديا وإيروس، صرخت آيديا واستيقظت فزعًا ليُصيب رؤى وإيروس مكروه.. رُبما هُناك شيء يربط بيني وبين آيديا وبين إيروس والمحاربة الصغيرة، أو رُبما أرادت آيديا أن تحذرني من أن هُنالك شيئًا يُصيب رؤى بجعلني أستيقظ فزعًا..

لا أعلم ولكني أثق بأنني سأعلم كُل شيء في التوقيت المُناسب.. أتمنى ألا يصيب إيروس مكروه لوقتها إذًا.

رؤى

ما إن استيقظتُ حتى وجدت بجانبي جميلة ومالك ويمان وشخصًا آخر لا أعرفه..

بقيت أتأملهم لا أعلم من هُم وأين أنا.. أحاول تذكر ما حدث ولكن كُل ما أتذكره إيروس وتلك الفتاة..

لأنظر لذلك الغريب وأنا أسأله بغير وعي:

-إنت إيروس؟

لينظر ليمَّان بصدمة ثم لي وهو يقول:



-إنتِي أخدتي بنج ف هتخرفي شوية.. لو مش عايزة حد معاكِي اطلبي دا وهنفذه.

لأقول:

-اطلعوا بس يمَّان يفضل.

لأستشعر نارًا تحرقني وتحرق يمَّان ليقول مالك وكأنه يذكرني بنفسه: أنا مش هسيبك واخرج.

لأنظر له وأقول بغير وعي: أنا كمان مش عارفة أسيبك إزاي.

لتحاول جميلة تهدئة الوضع وهي تسألني بخوف أمٍ لطالما كانتها: في حاجة وجعاكِي؟

لأشير لقلبي وأقول: هِنا..

ثم يطلب ذلك الغريب من الجميع الخروج حتى يمَّان.. لينظر لي يمَّان وكأنه يقول: هذا ما يجب أن يحدث الآن.

ما إن أغلقوا الباب حتى شعرت بأنني فقدت وعيي وأن كُل شيء حولي تحول إلى عصرٍ قديم.. حاولت الصراخ ولكنني لم أفلح أبدًا وكأن صوتي اختفى كما لو أنني في الفضاء وأصرخ في العدم.. كأن لم تُخلق لي أحبال صوتية أو فم من الأساس.. حاولت الهروب ولكن قدميَّ لم تتحركا.. هل مُتُّ أم فقط أنا أحلم؟ هل هذا



كابوس أم هذه الحقيقة؟

كُنت بداخل مدينة رائعة الجمال، توقفتُ أتأمل كل شيء حولي.. لم أرَ طوال سنوات حياتي بحرًا بذلك النقاء، شعرت بأنني لأول مرة أتعرف على لون البحر الحقيقي وماهيته، ولكن أيًّا كان ما يحدث هُنا فهو يغضبه؛ لأنه أقسم أني شعرت بأن الطوفان سيغرق تلك المدينة.. ولكنه كان بالروعة التي تجعلني أنسى الهلع الذي شعرت به وأتخطاه كأنه لم يكن قَط.

مشيتُ وكأنني أبحث عن شيء، شيء أعرفه ولكني فقط لا أعرف أنني أعرفه.. أغمضتُ عينيَّ لثوانٍ وأنا أقرر أنني سأترك نفسي للقدر.. لن أقاوم.

مشيتُ أتأمل البحر ولونه الأزرق الممزوج ببعض الرمادية نتيجة للسماء الملبدة بالغيوم وكأنها انعكاس لما يحدث بتلك المدينة المجهولة وكأن الطبيعة الأم تعاقبهم أو رُبما تعترض على ما يحدث هُنا حتى وصلتُ لكوخٍ يبدو مهجورًا، ولكنني شعرت أن هذا هو المكان المنشود.. إنه الشيء الذي طالما بحثت عنه.

دخلت لأجده كوخًا هادئًا، بداخله أريكة خشبية وبعض الأثاث الذي لم أستطع التعرف عليه وكأني بحقبة غير حقبتنا المليئة بالوسائد والأرائك المُريحة، ولا أظن أنه



يوجد به كهرباء لأني لا أجد أي دليل على اكتشافها حتى.. حاولت معرفة سبب وجودي هُنا، بقيت أتأمل الكوخ الخشبي وما به من تماثيل منحوتة بفن لم أرَ مثله.. لمستُ أحدها حتى وجدت تلك المرأة تقف بجواري لأتأملها، امرأة هي مفهوم العالم للجمال.. شعرها طويل وناعم.. بني ممزوج بلون أصفر لم أستطع حتى بألواني خلقه بتلك الدقة والروعة، وجهها كأنه منحوت.. وعيناها كعيني القط الفرعوني، صوتها ناي مثقوب ويدعمها تضارب الأمواج وكأنه موسيقى تصويرية عن الغضب والألم الذي تعزف به روحها.. أقسم أن كُل ما بي صرخ إلا صوتي.. شعرت وكأن ذلك التمثال مثل المصباح السحري، بمُجرد أن لمسته وجدتها، لتقول:

-هذا المُفضل لدى إيروس أيضًا.

لأحاول إيجاد صوت بداخلي يسألها من ذلك الـ «إيروس»؟

ولكني لم أستطع التحدث وكأن لُغتي غير ملائمة لهذا العصر، أو رُبما لم يكتشفوها بعد مثلما لم يكتشفوا الكهرباء.. رُبما هذا المُبرر الوحيد المنطقي لعدم قدرتي على التفوه بحرف أو حتى الصراخ.. لتُكمل متجاهلة ملامح وجهي التي لا أعرف هل هي أيضًا غير مُكتشفة



مثل صوتي أم لا.

-أعلم أنكِ ويمَّان ستفهمان كُل شيء بالوقت المُناسب.

وتقرب يديها فتلمس يديَّ لأستيقظ وأنا أصرخ، أصرخ وكأني أُعيد تحميل صوتي لجسدي بعدما محته تلك المرأة.. وكأني أجعل العالم يكتشف صفة جديدة به وهي الصراخ، لأجد يمَّان وذلك الغريب يهرعان إلي وأنا أنظر ليمان بهلع وكأنه الوحيد الذي يجب أن ينقذني من ذلك الكابوس، لم أشعر إلا أنني أرتمي بين ضلوعه.. ليقف العالم لثوانٍ وأنا أرى «إيروس» ذلك الرجل الذي أحب النحت والفن مثلي لأبتعد كمن مسته صاعقة ويمان تبدو عليه نفس الملامح.

لأقول له بصوتٍ هامس وكأني فقدت صوتي مجددًا وأنا أبكي:

-إيه اللي بيحصل؟ أنا مش فاهمة حاجة.. مش فاهمة حاجة.

لينظر لي نظرة لم أستطع فهمها، ولكنه حاول تهدئتي وهو يقول:

-و أنا معرفش إيه اللي بيحصل، لكن كُل حاجة هتبقى كويسة، وعد.

ليدخل مالك وجميلة ويرياني بين ذراعي يمَّان،



لتصمت جميلة وتتأمل ملامح مالك الغاضب المتألم ليقترب وهو ينتظر مبررًا ليقول يمَّان وهو يحاول تبرير ما يحدث لرجل عاشق متيقن أن كُل ما سيقال أمامه هو كذب لامرأة يُحبها تبكي بين ذراعي آخر، ويعلم أيضًا أنه على أتم الاستعداد لتصديق كُل حرف ليقول له:

-محدش يرهقها بالكلام أو الانفعال.. تعبانة جسديًّا ونفسيًّا ويا ريت نسيبها ونطلع.

أنقذني يمَّان من تبرير لم يكن لدي الطاقة لأفكر به، أعتقد أن حالتي كانت بالسوء الذي يجعله مُستعدًّا أن يتحمل غضب ولوم مالك بأكمله عني.

أعاد رأسي للخلف برفق وهو يهمس بصوت بدا لي وكأنه يرج الكون من صدقه:

-كُل شيء سيكون على ما يرام أيتها المحاربة الصغيرة.

لأغمض عينيَّ وكأنه استطاع بجملة واحدة أن يُعيد بناء عالمي المتهشم، أن يشعرني بالأمان الذي لم أشعر به منذ أعوام.. لم أعلم كيف لجملة واحدة أن تجعلني أشعر بكُل تلك السكينة، ولكني أكاد أقسم أني أغمضت عينيَّ ونمت قبل أن يسحب يديه من تحت رأسي حتى.

غفوتُ وأنا أعلم أن يمَّان مُقدر لي لقاءه منذ قرون.



يمَّان

مر اليوم.. بين نظرات مالك القاتلة، ونظرات جميلة المُرتبكة، ومُنير وعاطفته المفاجئة، وبين ألم بسنت، ومرض رؤى.. قررت أنه اليوم المثالي لأنضم لأبو عبده وأسمعه أم كلثوم ليحكي لي قليلًا عن أم عبده.. أحتاج أن أسمع للست حتى تأتي بروحها الخفيفة العاشقة وتجلس بجواري، أحتاج لقليل من السكينة والهدوء.

لتقول الست:

غلبني الشوق وغلّبني، وليل البُعد دوّبني.. دوّبني

ليقول أبو عبده: الله يا ست.. الله.

لأبتسم رغمًا عني وأنا أشعر أننا بإحدي حفلاتها الشهيرة، وأتأمل ملامحه المتسلطنة وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا، وأفكر.. هل هو سعيد حقًّا أم أنه الرضا الذي يضعه الله في قلوب المؤمنين وحسب؟ إنه من لطف الله أن يقذف الرضا في قلوب عباده المُبتلَين، المُبتلَين بالفراق والألم والحُزن ومازال لديهم القدرة على الابتسام والأمل والشعور بأن كُل شيء سيكون على ما يُرام.. أظن الرضا هو السلاح الذي نستطيع به تحدي الابتلاء.. أن نشعره أنه



لن يقدر على إتعاسنا؛ بل نحن سنتقبله وسنضمه لكنف ندوب أرواحنا المُتهلهلة بكُل روح رياضية، ونحن نعلن ضم هزيمة جديدة لدولاب هزائمنا المكتظ بجثث راحلين، روائح عطور كانت هي رائحة الحياة، وحروف باقية رغم مرور السنين، والجوابات والأعوام، ووجوه تغيرت، وأسماء نسيها العالم ولكن مازال لحروفها وقع السِّحر على أرواحنا المُهلكة بالفِراق.

لتُكمل الست ولا يقل شغف أبو عبده، لأشعر أنني يجب أن أتركه مع روح أم عبده قليلًا.. وأذهب لأرى محاربتي الصغيرة.

دخلتُ لأجد محاربتي نائمة ولكن حرارتها مرتفعة قليلًا.. أعطيتها الأدوية اللازمة وجلست بجوارها، أتأمل ملامحها وتفاصيل وجهها الذي لم يكن لدي الفُرصة لتفحصه بدقة من قبل، كانت مثل الحورية بشعرها الغجري المُتحرر.. لم تكن أجمل فتاة أراها ولكنها حتمًا كانت الوحيدة التي استطاعت أن تعطيني مفهومًا آخر للجمال، وكأنها تكره المنافسة والمقارنة فخلقت لجمالها ركنًا وحدها تنفرد به، وحدها تفوز به.. ووحدها تبهرك به، وهو أنها بمقاييس الجمال فتاة عادية ولكن كل شيء فيها عادي بطريقة استثنائية.



تذكرتُ أمي، هي أيضًا كانت جميلة للغاية.. ولكن ملامحها كانت عادية؛ ولذلك ظننت وأنا طفل أنه رُبما كل طفل يظن أمه هي أحلى أم خلقها الله وأفضلهن.. وبالفعل هي كذلك، كل أم هي الأفضل لطفلها.. تذكرت يوم موتها.. ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا أمسك بيد رؤى وكأني أحاول أن أمنع الموت أن يسلبها مني.. أمسكتُ يدها وكأني أسحبها لعالمنا، شعرتُ أنني سأفقدها مثلما فقدت أمي، ولكن لم أفهم سبب تمسكي بها.. سبب تمسكي بامرأة لا تلبس دبلة عاشق من الطراز الأول المُفضل لدى مُعظم النساء، تمسكي بامرأة يجمع بيننا القدر والأموات ورُبما الأحياء.. وهذه الرؤى.. ولكن قطع تفكيري هذا أنني أمسك يديها ولكني لا أرى إيروس وآيديا، رُبما لأنها نائمة أو مريضة، أو ربما لديهما رحمة رغم كُل شيء.. ولكنني وجدت ما هو أبشع من رؤيتهما وما لم أضعه بالحُسبان أبدًا.

وجدت خطوطًا من حبر أسود توشم يدي.. رأيت الخطوط تتكون أمامي وأنا في حالة ذعر ولا أستطيع تحرير يد رؤى، وكأن الخطوط تمتد من يدي ليديها.. ورأيتها تتعمق بكفَّيْ يديَّ ويديها وكأنها تكون خريطة ما لم أرها من قبل، شعرت وكأن تلك الخطوط توشم بالدم



وليس مُجرد الحبر الأسود.. استُنزفت.. شعرت بالدوران، وبلحظتها أعلنت الأجهزة عن توقف قلب رؤى، شعرت وكأني فقدت قدرتي على التنفس.. بقيت أصرخ بما لدي من طاقة.. أنا لن أستطيع إنقاذها وحدي، بقيت أصرخ كطفل وأنا أحاول أن أصل إلى زر الاستغاثة ولكن يدي ويديها مترابطة رغم توقف قلبها وذلك الوشم لا يتوقف عن إيجاد طريقه على أجسادنا المُنهكة وكأنه يوشم أرواحنا.. بقيت أصرخ حتى جاء أبو عبده.. رآنا بتلك الحالة فركض وهو يخبرني أن الدكتورة بسنت في المناوبة اليوم أيضًا، لتأتي بسنت.. تأتي وأغمض عينيَّ وكأني أعلم أني أنا ومحاربتي الصغيرة في يد أمينة، أستطيع سماع كُل شيء ولكني لا أستطيع فتح عينيَّ.. أشعر بقلبي يبكي كُلما حاولت بسنت أن تزيد من قوة جهاز الصدمات الكهربائي لتنعش قلب رؤى، شعرت أني أنتفض عندما تركت رؤى يديَّ، هل ماتت؟!

تغلبت على ضعفي وأنا أقول بصوتٍ أعلم أنها ستسمعه.. إنه اتفاقنا:

-أيتها المحاربة الصغيرة، لا ترحلي أرجوكِ..

لأشعر بيد أحد تلمس يديَّ.. أظنها بسنت، ولكن كم تمنيت لو أنها أنتِ يا محاربتي الصغيرة! صوت بسنت



يأتي لأذنيَّ متقطعًا وكأني أحاول قطع صلتي بالعالم، أو رُبما خائف مما ستعلنه لي:

-يمَّان، أنا فقدتها.. أنا آسفة.

لأفتح عينيَّ بقوة لم أشعر بها من قبل.. أظنها قوة الألم وأنا أنظر لها وأحاول النهوض لأقف بصعوبة، أقترب من رؤى وأنظر لها لأقول:

-هتقوم..

لأخبر بسنت أن تعطيني جهاز الصدمات الكهربائي، وبسنت تحاول إقناعي أنها حاولت ولكني أصرخ بها لتصمت تمامًا وأحاول يا محاربتي أن أسمع دقات قلبك الذي لا أعلم متى أصبح مُحببًا لي لتلك الدرجة.. بقيت أحاول حتى بكيت بحُرقة وبسنت حاولت أن تجعلني أهدأ ولكني شعرت فجأة بإيروس وآيديا وبقيت أصرخ:

-إنتو السبب، رجعوها.. إنتو السبب..

لتحاول بسنت الاقتراب وهي تتساءل: مين هُما؟

وشعرت بأن عليَّ أن ألمس يديها مجددًا وكأنهما ألهمتاني أن أمسكها بالقوة التي كُنت أضم كفها الصغيرة بها قبل أن يجد الوشم طريقه إلى يدينا وكأنه العلاج.. لأمسك يديها بقوة، أمسكهما وأنا أدعو أن تفلح هذه الخدعة، أن أتحايل على الموت.. وأنا أبكي وأقول:



«أرجوكِ، أرجوكِ».. حتى انتفضت مفزوعة وكأنها تحاول أن تلتقط ما فقدته من أنفاسها.. نهضت وبكيتُ بحُرقة كما بكيت يوم فراق أمي.. بكيت وأنا أسترد رؤى، نظرت لي وهي تحاول أن تفهم ماذا حدث ولكنني لم أجد نفسي إلا وأنا أرتمي بين ضلوعها وأبكي بنحيب.. تحولت من رجل بارد المشاعر صامد دائمًا لطفل يبكي فراق أمه واسترداد فتاة لا يعلم لماذا دائمًا يشبهها بأمه.

لتنظر بسنت لرؤى وهي ترى أن أجهزتها الحيوية كُل نسبها طبيعية كأنها لم تكن على وشك فقدان حياتها منذ ثوانٍ.. وتخرج من الغُرفة أظنها لم تستطع تحمل رؤيتي بين ذراعي امرأة أخرى.. والحق معها.. أنا مدين لها بروحي وروح محاربتي الصغيرة.

لتنظر لي رؤى بعدما توقفت قليلًا عن البكاء وهي صامتة.. لا تتحدث لأسألها:

-في حاجة واجعاكِي؟

-قلبي.

لتصمت قليلًا وتكمل:

-يمان.

لطالما سمعت أصدقائي يقولون إنهم عندما يسمعون أسماءهم ممن يحبون يشعرون أنه مميز، ولطالما كُنت



أسخر بداخلي من هذه الفكرة ولكني الآن أشعر أني أكثر يمَّان محظوظ لأن لدي رؤى تتلفظ باسمي بتلك النبرة.. أشعر أن حروف اسمي تبتهج وهي تخرج من بين شفتيها.. كُنت مُتيمًا باسمي فلم أستطع التحدث فحركت رأسي باستفهام دون أن أتحدث لتمسح بقايا دمع من على وجهي لأغمض عينيَّ وأنا أهيئ قلبي لسماع نبرة صوتها مُجددًا وهي تقول:

-اتصل بمالك، أنا عايزاه ييجي.

شعرت بخنجر بقلبي.. كيف لها أن تُحييني بحروف وتقتلني بعدها بأخرى؟! كيف لها أن تهبني كُل شيء وتنتزعه مني بنفس اللحظة؟! لأتذكر العاشق الذي كاد يقتلني خارجًا منذ ساعات.. هل يغار من كُل الرجال أم فقط مني أنا؟ هل لأنه يشك بأني أنا من يكن لها عشقًا خفيًا أم هي من تسير بخطوات ثابتة للوقوع في عشقي ولكنها تحاول إنكاره أم لإنه يشعر بالخطر.. لأقول كمن يحاول استجماع نفسه وخيبته:

-قطعًا.

فقط كلمة واحدة كانت كافية لتعبر عن حتمية اتصالي به، وعن التمزق الذي سأشعر به وأنا أفعل ذلك.

لأخرج وأنا أهاتف: مالك، ليرد بصوت ناعس،



وأخبره:

-معاك دكتور يمَّان إسماعيل، رؤى عايزة تشوفك.

ليقول بفزع أغضبني:

-حصل لها حاجة؟ هي كويسة؟

لأحاول التمسك بحقيقة أنه خطيبها وأكمل:

-ياريت تيجي ومتتأخرش.

لأشعر أنني انتقمت قليلًا بتركه قلقًا ولأشعر بالغضب من نفسي.. ماذا أفعل؟!.. لأتأمل الوشم وأنا أشعر بأنه الوسيلة الوحيدة التي تربط بيني وبين رؤى الآن.

رؤى

استيقظت لأجد الدكتورة التي أجرت لي العملية ويمان يبكي وفجأة يرتمي بين ضلوعي.. لم أكن أستوعب ما حدث ولكنني أستطيع توقع مدى سوئه حتى يبكي يمَّان بتلك الحدة، كُنت أظن أن الحب لن يدق بابي أبدًا.. كُنت أظن أني خُلقت بلا قلب حتى بكى يمَّان بين ضلوعي وكأن دموعه سقت نبتة قلبي لتطرح قلبًا يدق بعشقه، وكأن دموع كُل من قبله لم تكن كافية لترتوي تلك النبتة



وتطرح، أو كأنها فقط تحتاج لملوحة دموعه هو دون غيره، تحتاج ذلك المقدار من الوحدة والحزن والألم.. شعرت بكُل شيء لم أشعر به من قبل، تذكرت تلك الأسطورة اليونانية القديمة التي قدمها «أفلاطون» أن الإنسان كان لديه أربع أقدام وأربع أذرع ورأس واحد مكون من وجهين لكن خاف الإله زيوس من قوتهم فقسمهم إلى نصفين.. ليقضي كُل نصف منهما حياته بحثًا عن نصفه الآخر.. لم أقتنع أبدًا بجملة «نصفي الآخر» حتى دخل يمَّان ضلوعي وشعرت بأني لأول مرة أشعر بالكمال.. ليس نقصًا مني بل الكمال به.

رغبتُ أن أرى مالك تلك اللحظة.. رغم أعوام معرفتي الطويلة بمالك إلا أنني أبدًا لم أضمه.. رغبت أن أضمه، رغبت أن أشعر بأي شيء مثلما شعرت من قبل، وما هي إلا دقائق حتى وجدت مالك يبدو مفزوعًا لأجد أن تلك هي اللحظة المناسبة، مثلما كان يمَّان مفزوعًا الآن مالك أيضًا خائف.. إنها نفس المشاعر ولكن هل سأشعر بنفس الشيء؟ ما كاد ينطق بحرف حتى ضممته.. توقف مالك عن الكلام قليلًا من دهشته، ووضع يديه حول خصري بهدوء وأشعر بدقات قلبه تتصارع وكأنها تسابق الزمن حتى لا تنتهي تلك اللحظة.. ولكني لم أشعر



بشيء.. ليرانا يمّان من الخارج.. أقسم أني رأيت نارًا تحرق صدره ويخرج رماد روحه من عينيه وصمته لأقول لمالك وأنا بين ضلوعه:

-إحنا لازم نسيب بعض..

ليبتعد مالك، وأغمض عينيَّ وكأني أحاول الاستعداد لكُل ما سأواجهه بعد جُملة من أربع كلمات ستغير مجرى حياتي وحياته، جملة تدمر كُل ما سعى له منذ أعوام، كُل ما تحمَّله من ألم، أربع كلمات وكأن كُل كلمة وضعت في موضع المستطيل الذي تحول تدريجيًّا إلى قبر حُبه الذي لم يكتب له التنفس قَط.. لينظر لي، يتأملني وكأنه يبحث في ملامحي عن فتاة وقع في عشقها منذ أعوام.. أستطيع رؤية دقات قلبه التي تكاد تعلن عن مغادرتها الاضطرارية لضلوعه لسوء الأحوال النفسية ليقول وهو يحاول تذكر ما تعلمه من حروف:

-لازم؟

لأقول: نعم، دون أن أنطق أكثر حتى لا يجد مهربًا من القبر الذي حاولت لأعوام حفره ولم أستطع خوفًا إن زادت كلمة أخرى أن يتوسع القبر ويستطيع الهروب منه.. متى أصبحت بتلك القسوة؟ لا أعلم، لا أظنها قسوة ولكنني فقط لا أستطيع التأقلم مع ذلك الحُب المُزيف أكثر



حين أعترف لأول مرة بأنني واقعة في عشق رجل لا أعلم كيف سينتهي بنا المطاف.. لن أدخل مالك في حرب ليست بحربه.

ليبتعد مالك أكثر وهو يضحك بقهر وصدمة ليقول:

يمان؟

لأصمت، كأن صمتي هو تعويذة حمايتي من الاعتراف بما لم أرغب في أن أعترف به حتى لنفسي.. لأصمت وكأني أرفض أن أقول كلماتٍ علكت كثيرًا من قِبل أناس آخرين.. وكأنني أحاول عدم استفزاز ألمه بالانفجار أكثر.. صمت حتى دخل يمان وهو يقول باحترافية دكتور لم يرَ الفتاة التي نحب بين ذراعيها منذ دقائق بين ذراعي رجل آخر:

-كفاية كدا لو سمحت عشان هي لازم ترتاح.

ليقترب منه مالك والغضب يتطاير من ملامحه وينظر له فقط وكأنه يحاول أن يجد بملامحه وسامة ليست به، يحاول إيجاد ما ينقصه في وجه يعلم أنه يربكني بطريقةٍ أو بأخرى.. ينظر له وكأنه يقارن في عقله ماذا فعله ذلك الـ «يمان» حتى وقعت في عشقه في أيام معدودة وهذا ما لم يستطع مالك فعله في أعوام مديدة.. تأملته وأنا خائفة من رد فعله لأخبر يمَّان أنه لا بأس.. يمكنه الرحيل، وما



إن نظر لي يمَّان حتى لكمه مالك بقوة في كتفه وهو يبعده عن طريقه ليخرج.. وما إن لمسه مالك حتى أمسكه يمَّان بقوة تفريغًا للغيرة التي شعر بها حتى تحركت من مكاني ووقفت أمام يمَّان وأنا أنظر له بحدة وأقول بنبرة لا تخلو من التهديد: «يمَّان»؛ حتى يتركه.. وينظر لي مالك نظرة طفل تهجره أمه دون سبب، تهجره ولن تعود أبدًا.. أصبحت بين رجلين أحدهما كان الماضي بألمه، والآخر هو المستقبل بغموضه، وأنا بينهما الحاضر، وأنا بينهما الحاضر وكأن مالك الغروب واحتضار الشمس لولادة القمر وأنا الشفق وما بينهما..

رحل مالك ولم أجد نفسي إلا أبكي، أبكي فقدان صديقي الحتمي، أبكي أعوامي السابقة، أبكي ألمه، وأبكي كُل المرات التي رغبت فيها بإنهاء كُل شيء ولكنني لم أستطع.. لم أرغب حتى بوجود يمَّان، فقط أردت أن أبقى وحدي، رغبت في تذكر كُل شيء والتفكير فيما أريده مستقبلًا بعيدًا عن يمَّان.. أنا اتخذت قرار ترك مالك ليس فقط من أجل عشقي غير المعلن ليمَّان؛ بل لأن مالك يستحق أن يكون مع فتاة واقعة في عشقه.. هو يستحق ما هو أفضل من ان يكون مع فتاة تنظر له بشفقة وتحاول استجداء مشاعرها لتشعر بشيء.. أي شيء.



وما هي إلا دقائق حتى نظرت ليديَّ وأنا أتأمل أصبعي التي تحررت من دبلةٍ لم تمسها قَط، تحررت حتى من شبحها.. تنفست وشعرت بالحرية ولكنني وجدت وشمًا، خيوطًا من حبرٍ أسود تزين معصمي وكفي ويديَّ، لم أفهم ما هذا.. حاولت مسحه ولكنه لم يتأثر، تذكرت آيديا حين لمست يديَّ فاستيقظت مذعورة.. لم أجد نفسي إلا أهاتف يمَّان، وما هي إلا دقائق حتى وجدته بغرفتي، وقبل أن أتكلم كشف لي عن معصمه الذي يوجد به وشم وكأنه يكمل ما بدأته خيوط أظن أنها من صنع إيروس؛ لأنه مُحب للفن والنحت مثلما رأيت في ذلك الكوخ.. نظر بعضنا لبعض ونحن نتيقن أنه حان وقت التحدث بصراحةٍ عن كُل شيء لأخبره: لقد انفصلت عن مالك.

لتبدو عيناه جاحظتين قليلًا من الصدمة، ولكنه يقاوم ذلك الاندهاش ويقول: لم يبدُ الأمر كذلك من الخارج.

لأبتسم وأقول: لطالما كان يبدو كل شيء على عكس ما هو عليه في الواقع، ولكني تيقنت أنه ينبغي أن يأخذ مساره الصحيح بالنهاية.

ليقول: أظن أنه وقت التحدث عن آيديا وإيروس.. لم أعلم قصتهما بالكامل ولكنني علمت ما يرغبان هُما أن أعلمه في الوقت الحاضر.. هو محارب فارسي وهي



أميرة لملك اليونان، وقعا في العشق منذ لحظة لقائهما الأولى، كان من المُفترض أن يأسرها ولكنه قرر حمايتها في كوخٍ كان تابعًا لأبيه من غزواتٍ سابقة.

لأصرخ: أنا كُنت في ذلك الكوخ، كوخ يطل على البحر وكأن البحر غاضب للغاية.. الكوخ فقط به أثاث خشبي عتيق ولا دليل لاكتشاف الكهرباء.. ولكن به منحوتات رائعة الجمال، رأيت آيديا هُناك وقالت لي: أنا وأنت سنفهم كل شيء في الوقت المناسب، ثم لمست يديَّ فاستيقظت مذعورة.. لمست مكان الوشم.

ليقول: أظن أنكِ وإيروس يوجد بينكما رابط، عندما حلمتُ أن إيروس أصابه مكروه كُنتِ أنتِ في المستشفى تجرين العملية، وعليه هُناك رابط بيني وبين آيديا.

يصمت قليلًا ويقول: نحن في مُنتصف شيء أكبر مما نظن، لا أعلم هل هو سحر أم ماذا، ولكنه شيء مُمتد منذ عصور ما قبل الميلاد.. كُل ما أعرفه أننا بالتأكيد لسنا أول من يحدث معه ذلك، ولكننا يجب أن نكتشف ماذا يحدث ونوقفه قبل أن يزداد سوءًا.

ليقترب مني يمَّان ويلمس يديَّ وهو يقول: كُل شيء سيكون على ما يرام، أعدك.

ثم تستمر غرابة كُل شيء لنجد حتى ما كُنا لم نستطع



تخيله.

*** في القرن الـ ٥ قبل الميلاد ***

إيروس

ما إن صرخت آيديا حتى التفتُّ لأجد داريوس يوجه سيفه لقلبي، ولكنني تفاديته ليصيب كتفي، لم أشعر بألم بكتفي بقدر ما شعرت برأسي من تزاحم الأفكار التي قفزت لعقلي في تلك اللحظة.. هو الآن يعلم أن آيديا لم تمت، يعلم أننا عاشقان وأنني أخفيتها عنه طوال الأشهر السابقة، وما هي إلا دقائق حتى يستوعب أنني بطريقةٍ ما سبب تأخير احتلالنا لأثينا بحجج واهية وحملات وهمية، هو يعلم أنه لا يجابهني قوةً؛ ولذلك فعل أشنع أفعال الفرسان وهي تعتبر خيانة أن تضرب فارسًا من الخلف دون أن يراك، ولكنه كان يعلم أنه لن يستطيع أن يغلبني أبدًا إذا واجهني.. صرخت آيديا وهي تركض وكأنها تحاول تشتيت انتباه داريوس، وما هي إلا ثوانٍ حتى انقلب السحر على الساحر، وسقط داريوس أرضًا وفوقه آيديا التي سألتني: «هل تريد نوال هذا الشرف؟» ولكنه كان



مستسلمًا لها تمامًا، ينظر لها وبعينيه دمعة تحارب بكبرياء وكأنه مات فعليًّا عندما رغبت هي بقتله، اقتربت وأنا آخذ منها السيف لأقول له بصوتٍ أجزم أنه كان سببًا في اهتزاز الأرض من تحت قدميَّ: «قف»، ونظرت لي آيديا بتعجب كيف لي ألا أقتل الرجل الذي قتل أبي وزرع بقلبي لأعوام الكراهية لرجل ليس عدوِّي، كيف لي ألا أقتله حين سنحت لي الفرصة؟ وقف ولا أعلم هل كان متعجبًا من أنه مازال حيًّا، أم من حقيقة وجود آيديا أمامه، أم شكه أنني علمت الحقيقة.. اقتربت آيديا ووقفت خلفي وكأنها تحاول جعله يستوعب الحقيقة كاملة دون أدنى شك أو احتمالات، ولكنني تأملت ملامحه مطولًا أبحث فيها عن ثغرة تجعلني أغفر لنفسي حماقة تصديقه، أبحث في ملامحه عن رجل ظننته لأعوام صديقي لأكتشف أنه عدوي، أقترب أكثر وأنا أقرب السيف لقلبه دون أن يتحرك، دون أن ينطق.. سالت دمعته المُكابرة على خده.. لحظتها تيقنت من صدق آيديا، لم يكن أنا من هزمه بل الحقيقة التي حاول إخفاءها لأعوام.. أغمض عينيه وكأنه لا يريد أن يرى نهايته.. فقط يريد أن يشعر بتفاصيلها دون مشاهد ستطارده حتى في الحياة الأخرى، أو ربما هو ذاته قد نسي الحقيقة، نسي أنه مَن قتل أبي؛ لذلك لم يجد صعوبة أبدًا في معاملتي كصديق



ظنًا منه أنه يعوضني عن فقدان أبي.. أعطيته سيف أراما وأخبرته بحدة:

-أنا لستُ مثلك، سأقتلك حتمًا، ولكنني سأمنحك شرف المحاولة.

ليترك سيفه أرضًا ويجلس أمامي ظنًا منه أنه سينال عفوي لأصرخ فيه: حارب.. أم أنك تخشاني؟!

لينظر لي بنظرة تتحول تدريجيًا من ضعف إلى تحدٍّ ليقف ببطء، وما بدأنا المبارزة حتى وجدنا ملك اليونان وبعض جنوده خلفنا.. أصبحنا مُحاصرين، وتقف خلفي آيديا تحاول إقناع والدها أنني كُنت أحميها، وأن داريوس هو من كان يريد بها سوءًا.. لم يستمع، وأخذتها وصيفتها وبعض الجنود بعيدًا رغبةً في حمايتها، ولكنه أيضًا لم يتجاهل قولها.. بارزنا أنا وداريوس جنبًا إلى جنب بعدما كُنا سنتبارز حتى الموت، رُبما أنه من الصعب حقًّا أن تكره أحدًا أحببته لمدة طويلة وكأنه أصبح جزءًا منك، سواء اعترفت بذلك أم أنكرته، فنحن نتأقلم مع بشاعة من نحبهم حتى لو لم يستحقوا مثقال ذرةٍ من ذلك الحُب.. وكاد جندي أن يقتله فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أصيبه في قلبه وأحمي داريوس منه رغم أن سيفي كاد يخترق شغاف قلبه منذ دقائق.. نظر لي بامتنان وقبل أن أنطق أمر الملك



بإيقاف المبارزة فتراجع جنوده ونظر لداريوس وهو يقترب منه حاملًا سيفه معلنًا أن نهاية داريوس حتمًا قريبة، وقال له بسخرية:

كم من هزيمة تلزمك حتى تتراجع؟

قال له داريوس -رغم ضعف موقفه- بقوةٍ لطالما أحببتها فيه:

حتى أقبض روحك.

ليضحك الملك ويقترب منه ويقول: الأمر من هُنا يبدو النقيض تمامًا..

ليقول له داريوس بتحدٍّ:

ليست الروح فقط هي ما يُحيي الجسد، أحيانًا تكون الروح بجسد آخر، وبفقدانه نفقد روحنا معه، وحينها تكون ضربة موفقة.. عصفورين بحجرٍ واحد.

ليفهم الملك أنه يقصد فتاته آيديا، ويقرب سيفه منه بغضب يتطاير من عينيه لأشعر بأنه حان وقت تدخلي لأقول للملك وأنا أضع سيفي أمام سيفه:

لن يقتله أحد غيري، أنا من سينال هذا الشرف.

لينظر لي الملك... وأعتقد أن صوت آيديا في أذنه وهي تقول: «هو من كان يحميني» ليبتعد قليلًا ويقول بصوتٍ حازم:



و لكن رأسه لي.

ليرحل هو وجنوده وأجلس بجانب داريوس أغمض عينيَّ ليقول:

تغمض عينيك بجانب عدوك، ألا تخاف أن أقتلك؟ ما أحمقك!

لأبتسم بسخرية:

أشفق عليك أحيانًا، ألا تثق بأحد أبدًا! أم لأنك تظن أن كُل البشر مثلك، سيوهمونك أنهم أصدقاؤك ثم يضعون خنجرًا يسمم روحك، حتى وإن بقيت على قيد الحياة، سيسممونك بالخذلان.

ولكن لا تقلق.. أنا لا أدعي أنني صديقك، أنا الآن ألد أعدائك، ولم أنقذك لأنك صديقي؛ بل لأنني لن أجعل أحدهم ينال شرف قتلك، لن يمس دماءك سيف غير سيفي.. أنا فقط من سيقتلك؛ لذا لا تخف من أي أحد، سواي.

مرت أسابيع على تلك الواقعة ولم أرَ آيديا من يومها، أشعر بالاشتياق يفتت قلبي.. قلبي الذي لم يبالِ قَط بالدم والقتل والحروب والوحدة والموت أصبح يعتصر ألمًا لأنه لم يرَ وجهها الذي أصبح مفهومه للحياة.. متى أصبح فراقها أشد ألمًا من الموت؟ متى أصبحت بسمتها هي



الحياة وعبوسها هو الموت؟ متى أصبحت هي أنا؟.. هرب داريوس، لم أعلم هل هرب مني أم أنا الذي تركته يهرب ولكنني متيقن أنني إن لم أرغب بتركه لما استطاع الهرب، لم أستطع أن أترك أحدهم يمسه بسوء على الرغم من كُل شيء.. أعلم أنه سيعود لينتقم منا جميعًا، ولكنني متيقن أيضًا أنه أبدًا لن يستطيع إيذائي، ليس لأنه يحبني؛ بل لأنني أقوى منه، وحين كُنت جالسًا في كوخي أتذكر أبي وكيف قتله أعز أصدقائي وحليفي الوحيد لأجل الفتاة التي أحبها شعرت كم هي الحياة سخيفة! لأجد جنود الملك خلفي:

الملك يريدك.

لأقول بقوةٍ تعلمتها من داريوس:

إذًا لماذا لم يأتِ؟

ليشعر الجنود بالإهانة لأكمل:

إنه ملككم وليس ملكي.

ليقترب جندي منهم بسيفه ويحاول أن يصيبني وكأنه ينتقم للتقليل من ملكه العظيم فأقتله.

حاول الجنود قتلي ولكنني ابتعدت لخطوات وأنا أقول:

عفوًا ولكنني أريد شاهدًا على هذه الحادثة، فهلا حاول أحدكم البقاء على قيد الحياة حتى لا ينتظر ملككم كثيرًا؟



فمازال أمامه أيضًا بضع ساعات حتى يصل للكوخ.. لا تقلقوا هو يعلم مكانه جيدًا.

ليشير لهم قائدهم أن يتراجعوا، ونظروا لي بغضب وأنا أقول لهم بسخرية: مهلًا.. تركتم صديقكم هُنا!

وكأنني أفرغت بهم اشتياقي لآيديا، أو ربما لأنني أردت أن أغضبها حتى تأتي، ستأتي أعلم حتى وإن كان فقط لإيلامي على الجندي الذي قتلته.. ستأتي حتمًا..

غفوتُ لمدةٍ لا أعلمها ولكنني حين استيقظت كانت الأمواج تتصارع، ونظرت حولي أحاول استيعاب أنني غفوتُ خارج الكوخ لأجد آيديا فوقي وتضع سيفها عند رأسي وهي تقول:

إيروس.. ألا تخاف من أعدائك أبدًا؟

لأبتسم وأقول:

أقسم إن كان أعدائي بهذا السِّحر لنمتُ يوميًا أعزلَ!

لتحاول إخفاء حمرة وجهها بتحريك رأسها فيتطاير شعرها بسبب سرعة الرياح لألمس رأسها فتقترب مني أكثر وسيفها بيننا إنه دائما ما سيكون بيننا حروب ودم.. إنه دائمًا سيكون بيننا حروب ودم.. لتقول بصوتٍ حنون وهي تطعنني بسيفها: هذا من أجل ابن الجندي الذي قتلته.

بعدت وبدأت في الصراخ وهي تقول: إنه طفل، كيف



لك أن تقتل أباه؟!

لأقول وأنا أحاول ألا أظهر ألمي: حاول الهجوم عليَّ وأخبرتك مُسبقًا.. لن أرحم من يظن أنه سيستطيع مجابهتي..

لتقترب أكثر وأقف أمامها لتقول بحزنٍ: هل تؤلمك كتفك؟

لأقول: ليس بمقدار اشتياقي لكِ.

لتبتسم فأبتسم وأنسى أنها منذ لحظات طعنتني، وتنسى أنني قتلت أحد جنودها، وينسى الحُب فراقنا ولكن يتذكرنا القدر وننتقل من ألم إلى ما لم نكن نتوقعه.

آيديا

شعرت بروحي تقتلع من جسدي.. لقد مرت أسابيع منذ رأيت إيروس، لا أعلم إن كان بخيرٍ أم لا، كلما تذكرت كيف أخذتني الوصيفات والجنود، وكيف ظل أبي يستجوبني عن كيفية ذهابي للكوخ، وكم من المرات التي حاولت إقناعه فيها بأنه لم يتم أسري وأني ذهبت مع إيروس بإرادتي الحُرة وأنه لم يؤذني أو يجبرني على



المكوث في كوخه.. ولكن أبي يظن أنه هُنا لينتقم منه لقتل أبيه، أظن أن أبي نسي أنه لم يقتله حقًّا.. رُبما حين نكذب لوقتٍ طويل ننسى الحقيقة، رُبما هذا ما فعله داريوس أيضًا؛ نسي حقًّا أنه من قتل والد إيروس.. ولكن كيف لي ألا أنسى أنا؟ لماذا لم أتأقلم مع الواقع المزيف الذي صدقوه؟ كم هي موجعة وصادمة الحقيقة أحيانًا! وكم هو مؤذٍ أن تكون الوحيد الذي يتذكر الحقيقة كاملةً ويقع على عاتقك ثقلها!

مرت الأيام وكأنها أعوام، ذهبت لأبي.. أخبرته بالحقيقة التي نسيها كاملة وكأنني أقص عليه حقيقة ليست بحقيقته.. صمت لدقائق حين علم أن إيروس يعلم أنه لم يقتل أباه وقد وعدني أنه سيدعوه للقصر، ولأنني أعلم أن إيروس لن يستجيب للدعوة ومحاولتي أن أقنع أبي أن يذهب إليه من المستحيلات؛ قررت ألا أتدخل، وأن أترك كل شيء يحدث كما يجب أن يحدث وفقط أنتظر.. ولكنني أبدًا لم أعلم كم هو صعب أن تنتظر وأنت مُكبل الأيدي ليس بوسعك أي شيء سوى أن تتمنى أن تستحق النهاية كل هذا الانتظار.

وبالفعل حدث كُل شيء كما هو مُقدر له أن يحدث، ولنجتمع أنا وإيروس يجب أن تعبر أقدامنا فوق رمال



متشبعة بالدم، قُتل جُندي من جنود أبي المخلصين لم أشعر بنفسي إلا وأنا آخذ سيفي وأذهب لإيروس لا أعلم هل لأقتله أم لأقتل حبي له الذي هو سبب مقتل كُل من أهتم لأمرهم وكُل من يهمهم أثينا.. ذهبت له وطعنته، لم أعلم هل لأنه قال لي يومًا إن حُبي يجري بعروقه ولذلك رغبت في جعله ينزف عشقًا، ذلك المُحارب الذي باسمه تُخلى المُدن ويهرب أقوى الرجال جلس أمامي أعزل تاركًا إياي أطعنه تفريغًا لغضبي ليقوم بعدها ويحاول إقناعي أن حُبي لا يُمكن نزفه، بل حتى لا ينتهي بالموت وقفت أمامه وأنا أسأله:

-ألست غاضبًا مني؟

ليبتسم ويقول:

-أأنتِ غاضبة مني؟

لأومئ برأسي لا، ليقول:

-في جسدي العديد من الندوب ولكن صدقيني هذه ستكون المُفضلة لي، كلما لمست كتفي سأتذكر أنني يومًا استيقظت على صوتك وشعرك المتطاير وملامحك ووجهك.. صدقيني هذا يستحق ألم الطعنة، هذا حتى يستحق الموت آيديا.. فلستُ غاضبًا بل أنا مُمتن.

سألته بدلال وترقب:



-هل ستُحبني إلى الأبد؟

- وحتى ينتهي الأبد جميلتي، سأحبك إلى الـ (ما لانهاية)..

قام واقترب منّي، شعرت بجسدي يتزلزل.. يد حول خصري والأخرى تجد طريقها إلى ملامح وجهي وكأنه ينحت أحد تماثيله، وعيناه أمام عينيَّ، يهمس لي بحروف لم أستطع تمييزها من كثرة ما شعرت به دفعة واحدة.. أربكني قُربه، أربكتني عيناه ولمساته.. رغبت لو أنني أختبئ بداخله كطفل شقي من الحياة فيحاول أن يرجع جنينًا في رحم أمه، دخلت إلى ضلوعه وأغمضت عينيَّ وكأن بقربه ليس هُناك شيء يستحق الرؤية، وكأنني أستخدم عينيَّ فقط لأراه، اكتشفت حاسة الشم فقط حين استنشقته وحدود جسدي حين أحاطه بذراعيه وقلبي حين وقعت في حُبه واكتشفتني حين قابلته.

بقينا هكذا لمدة لا أستطيع تحديدها وكأن ضلوعه خارج حدود الزمن، وفجأة شعرت به يرتجف، نظرت له وأنا أحاول ألا أفيق من حالة الشغف التي وقعت فيها حتى قال:

أنا أحبك، للأبد.

وبدأ يميل علي.. ضحكت وأنا أفتح عينيَّ لأجد دماء..



دماءه، ثوبي الأبيض تحول للون الدم.. يميل علي وهو يفقد وعيه، لم أجد نفسي إلا أصرخ.. لم أحاول استيعاب ما حدث.. فقط صرخت، لماذا يُدمر كُل شيء أحبه؟ إما يفنى أو يموت، صرخت وأنا أهتف باسمه فقط وكأنه كُل ما تعلمته من لغة منذ مولدي.. صرخت وأنا أخبره:

لا تتركني، أرجوك.

ليحاول رسم شبح ابتسامة على وجهه وهو يصارع الموت ويُكمل:

و حتى ينتهي الأبد جميلتي..

أخذته بين ضلوعي وبقيت أصرخ وأبكي حتى وجدت داريوس خلفه، صرخت به: أنت من قتلته، سأقتلك.. أقسم سأقتلك.

ليضحك وهو يقترب:

أنتِ قتلتيني منذ أعوام حين رفضتيني، وقتلتيني حين اخترتيه..

وتحولت نظراته لبكاء وهو يكمل:

وتقتلينني الآن حين تبكين.

لأقول بصراخ وغضب وألم: سأقتلك يا داريوس، ولن يرحمك مني أحد.. سأقتلك وإن بقيتُ أبحث عنك للأبد.

ليقترب وهو يقول: أنا لم أقصد قتله، هو صديقي.. أنا



رغبت بقتلك أنتِ ولكنه اختار الموت على أن يعيش بدونك، رُبما أيضًا كان يعلم أن فقدانه سيقتلني فرغب أن يقتلني، وليس مرةً واحدة؛ بل أن يقتلني يوميًّا بطرق مُختلفة.. قال لي: «لا تخف من أعدائك، لا تخف من أحد سواي».. لم يقتلني أعدائي، لم يقتلني سواه، كان من المفترض أن تموتي أنتِ حتى لا تفرقي بيننا، لن يؤلمني فراقك فأنا تأقلمت مع حقيقة موتك لمرة، وكُنت سأتأقلم معها لمرة أخرى أما هو، فمن لي سواه!

بكى داريوس وشاركني نحيبي على فقدان حبيبي بين ذراعي، وما هي إلا دقائق حتى وجدته يتحرك نحو سيف إيروس وهو يقول:

قال لي: لن يمس دماءك سوى سيفي.

ثم وضعه عند رقبته ونحرها..

بقيت أصرخ، منذ لحظات كُنت بين ذراعي إيروس سعيدة للغاية، والآن جالسة بين رجُلين، أحدهما كان يضحي بي والآخر ضحى بنفسه لأجلي.. أبكي وتتحرش رائحة الدماء بحواسي وكأنها تخبرني عن الطريقة الوحيدة لاسترجاع إيروس مجددًا، وكأن الأرض ترفض حقيقة موته، ليس بعد.. اقتربت منه وأنا أقبل عينيه وأقول:



سأحبك، للأبد وحتى ينتهي الأبد يا إيروس.. سنُخلد للأبد.

و ما ظننته النهاية لم يكن سوى البداية.

يمان

ابتعدت أنا ورؤى وتأمل بعضنا البعض في صدمة وجدت عينيها مدمعتين فقربت يديَّ حتى ألمسها.. ابتعدت وهي تقول:

مش هقدر أشوف حاجة تاني.

لأقترب أكثر وأنا أقول:

مش هنشوف، هو دا اللي عايزينا نعرفه للوقت الحالي، اللي جاي دورنا إحنا مش هُما.

بدأت تبكي وتهمهم بحروف غير مفهومة متقطعة ولكنني أعرف أن موت إيروس قد آلمها، فبطريقةٍ ما هُما مترابطان مثلما شعرت أنا بفاجعة آيديا بفقدان إيروس، ولكن كُل ما أخافه هو أن أفقدها مثلما فقدت آيديا إيروس.. كم هو غريب أن تخاف فقدان ما ليس لك! يشبه خوفنا من الموت رغم جهلنا به، فلم يعد أحد منه ليخبرنا عن أسراره مثلما لا يعود أغلب الغائبين ليخبرونا عن حياة ما بعد



الفراق والذين يعودون غالبًا لأنهم لم يستطيعوا أن يتأقلموا في ذلك العالم الآخر الخالي من أحبائهم.. فلا يختلف كلامهم كثيرًا عن توقعاتنا الخرافية عن الحُب والاشتياق، ولكن ماذا عن الذين لا يعودون وحياة ما بعد الفراق؟ وماذا عن الأموات وعالمهم الآخر؟ كانت تبدو بحالة سيئة، مريضة ووحيدة وكأن السماء سقطت من هذا الارتفاع الشاهق فوق قلبها ورشقت النجوم بشرايينها فنزفت نورًا أظنه روحها، كم تمنيت لو باستطاعتي استئصال قناتها الدمعية! فلم أتوقع أبدًا أن تحرقني قطرات من الماء قط.. ولكنني حين رأيتها تبكي تيقنت من حقيقة أن النار تكمن في الماء.. اقتربت منها قليلًا وهي مازالت تبكي، همستُ لها:

-هل كان يبدو إيروس بهذا الجمال حين كان يبكي؟ رُبما لهذا أصابته آيديا في كتفه.

لتتوقف قليلًا وتنظر لي بعينين تحولتا من اللون البُني إلى الأحمر وتقول بصوتٍ يشبه صوت الأطفال بعد نحيب طويل:

-إيروس كان بطلًا فارسيًّا لا قلب له ليبكي، رُبما لذلك أنا هو وليس أنت، قلبك حنون كآيديا، أما قلبي فصدئ مثله.. مثلما هي تحاول إنقاذ شعبها أنت دكتور تنقذ أرواح



الناس، ومثلما أنا أرسمهم مُعذبين، أرسم مخاوفهم الداخلية وأوجاعهم كان ينحت إيروس ملامح أعدائه وأجسادهم بعد الأضرار التي سببها قتله لهم.. هل تتخيل أن يقتلك شخص ثم يتأمل ملامحك وأين طعنك فقط لينحت نصره على ملامحك؟ أنا مثله، أطعن بالألوان، أطعن بالتجاهل تارة والكلام تارة أخرى ثم أضرب الضربة القاضية بالصمت وأرحل على أشلاء بقايا علاقات كانت يومًا سبب الحياة لأحدهم.. أظن عندما يبكي بسببك الكثير من الناس يصبح وكأنك فقدت حقك في البُكاء، تتألم بكبرياء أو رُبما خوفًا من شماتة المتألمين عندما يدور الزمان.. تتألم في صمت وتختفي ولكنك أبدًا لا تبكي.

-و لكنكِ بكيتِ!

-رُبما ألمي هذه المرة أعمق من كبريائي إذًا.

صمتُّ أمام فلسفتها السوداوية، كم لزمها من تبرير حتى لا تخجل من ضعفها أمامي.. أظن إيروس مكابرًا لهذه الدرجة أيضًا؛ ولذلك لم يبكِ أبدًا بين ذراعي آيديا لتقطع تفكيري وقالت بجدية:

-أنا عايزة أخرج النهارده، مش هستنى لبكرة.

لأبتسم لأنني كُنت متيقنًا أنها لن تبقى في المستشفى إلا لو كانت نائمة ولأني وضعت لها مهدئًا فما هي إلا دقائق



حتى تغفو.. ابتسمت لها وأخبرتها بأنني سأخبرهم ولم أجادلها، قالت وهي تأخذ وضعية النوم: أخبرهم حتمًا لأنني لن أبقى أقسم لك!

لم أستطع منع نفسي من الضحك على تلك الفتاة التي كانت عجوزًا في الثمانين من عُمرها وهي تصف فلسفتها عن الحياة والآن كفتاة صغيرة يخدعها أبوها حتى تخلد للنوم في الثامنة من عُمرها وتبدو رائعة الجمال كامرأة يخجل الزمن أن يُمرّر ملامحه عليها.

لو تعلم كم هي مثالية وأن قلبها هو فكرة أحدهم عن الجنة، لو تعلم أن عينيها نجمتان سقطتا من السماء رحمة من الله بنا وبفضولنا القاتل تجاه ماهية النجوم.. فضولي تجاه كُل ما يخصها يشبه فضولي تجاه الكهوف والبحار وماهية السماء والفضاء الخارجي وكواكبه، وكأن كُل جاذبية الكوكب أصبحت فقط بيني وبينها فأصبحت وكأنني ألتصق بها رغمًا عني.. لا أحاول إنكار عشق يقفز من عينيَّ كطفل أمامه كوكب من الألعاب ولا يستطيع إخفاء لمعة عينيه وذلك الفضول والترقب وفقط يحتاج لأذني أبويه لينطلق ويتفقد كُل لعبة على حدة، أنا أيضًا فقط أنتظر أذنها لأعيث بقلبها وجسدها عنفوانًا لن تعرف له مثيلًا أبدًا ولا أظن هذا أبدًا له علاقة بذلك



الرابط بيننا وبين آيديا وإيروس.

قطع تأملي لملامحها وتفاصيل وجهها المُرهق أحد الممرضين وهو يخبرني أن أبو عبده مريض للغاية ولا يريد طبيبًا سواي.. ركضت له، هذا الرجل العاشق هو رفيقي لسنوات وكان خير جليس.. ذهبت له وكانت بجانبه بسنت ومنير فهما يعلمان كم أحبه وبعض المختصين الآخرين فكُل من هُنا يحبه، عم أبو عبده هو الأب الروحي لنا جميعًا.. طلب منهم الرحيل جميعًا، تعجبت ولكنهم خنعوا لرغبته.. تأملته قليلًا وأخبرته:

-أنت فاكر نفسك رايح لأم عبده ولا إيه؟ لا هتسيبني لمين أنا وعبده!

ليبتسم وهو يمد يده لي ثم يكشف عن معصمي ليرى الوشم ويقول:

-الوشم دا شوفته مرة واحدة ف حياتي كُنت لسة صغير وكُنت ف النوبة، من ساعة ما شوفته على إيدك وانت بتجري عشان تلحق المريضة اللي ف غرفة ٢٠٩ وأنا بافتكر شوفته قبل كدا فين.

ليلتقط نفسه وكأنه يصارع الحقيقة ليستطيع التلفظ بها قبل أن تبتلعه حقيقة العالم الوحيدة، ولكنني كُنت مترقبًا وكأنني نسيت أني دكتور وكان من المُفترض أن أحاول



جعله يرتاح لا أن يرهق ذاته أكثر ولكنني لم أفعل ليكمل:

-لو ربنا استرد وديعته قبل ما أفهمك كُل حاجة، روح لـ مُحب ميلاد.. أهل النوبة كلهم عارفينه.

شعرت أن معي خيطًا يُمكن أن أبدأ منه وأنني أستطيع أن أستعيد حكمتي كطبيب وطلبت منه أن يصمت ويهدأ وان كُل شيء سيكون على ما يرام، ولكن لن أنكر أنني شعرت ببعض السكينة لأن أحدهم حمل عبء هذا الوشم قبلي أنا ورؤى ولكن ماذا حدث لهم؟ ولماذا يعلم ذلك الـ «مُحب» سر الوشم وحده؟ ولماذا هذه الأسطورة الحية ليست معروفة؟ إنه شيء لا يتخيله عقل، فلماذا ليست حتى أسطورة لا نصدقها مثل النداهة وغيرها؟ بقيت بجانبه وبداخلي آلاف الاستفسارات والأسئلة وكأن كُل سؤال يحمل بداخله الكثير والكثير من التساؤلات.. رغبت أن أهرع لرؤى لأخبرها أننا وجدنا أول خيط لمغامرتنا الفريدة، ولكنني قررت إخبارها فقط عندما أتيقن من كُل شيء حتى لا تأمل فتصاب بخيبة أمل ولأن جميلة احتلت الغرفة بأشيائها وضوضائها وخوفها على رؤى لم أستطع الاطمئنان عليها.. كم أحب صداقتهما البريئة الخالية من الغيرة وخلافها من مُهلكات الروح! كم هو رائع أن تمتلك صديقًا لا يكن لك سوى المودة والتقبل! التقبل الذي هو



أعظم وأسمى ما يُمكن أن يمنحه أحد للآخر.. أن تتقبله بعيوبه ومميزاته، بمخاوفه وأسراره الدفينة، أن تتقبله حتى حين لا يكون له المقدرة على تقبل ضخ الدم بداخل شرايينه، أن تكون أنت الروح التي تُبث فيه عندما توضب روحه أمتعتها استعدادًا للهروب من جسد يأسرها.. أن تتقبل أحدًا دون الرغبة في تغيير أي شيء فيه هو أعظم ما في الصداقة، وأظن أن آيديا لم تكن بحظ رؤى لامتلاكها صديقة مثل جميلة، أو ربما كانت إحدى وصيفاتها هي جميلتها، لا أعلم.

ولكن مجددًا، لا يُمكن أن يمر يوم بسلامٍ دون عوائق داخلية تمزقنا أو عوامل خارجية تُحطمنا.. كم يلزم من فراق البشر حتى نتأقلم على الفراق، حتى لا نتألم من حقيقة الفقدان.. كم يلزمنا من الألم حتى نتبلد؟ لا أعلم ولكنني أظن أنه كُلما كُسرنا أو تحطمنا فإن غريزة البقاء التي وضعها الله في فطرتنا تصلح ما أفسده العالم بداخلنا خوفًا من هلاكها، ولكن كم يستطيع القلب أن يتحمل!

رؤى



استيقظت بعد إرهاق العملية والأحلام التي لم أستطيع تحديد مدى صدقها أو كذبها، كم رغبت لو يخبرني أحد أن كُل هذا وهم وخيال.. أردت أن أتحقق من وجود الوشم على معصمي ولكنني ارتعبت من أن أجده حقًّا.. فقررت أن أتجاهل كُل شيء لفترة وأدعي أنه ليس له وجود، إن كان الواقع مريرًا ومُرهقًا فسأحاربه بالتجاهل.. لن أجعله ينال مني أبدًا، وجدت جميلة نائمة واضعة قدميها فوق جسدي، ضحكت فجميلة عندما تنام تذهب لعالم آخر وستقتل نفسها لو استيقظت ووجدت وضعيتها فوق جسدي المريض، ولن تنام حتى نعود للمنزل خوفًا من أن تكرر فعلتها، ولكنني قبلت رأسها وقررت أن أتجول قليلًا بالمستشفى.. لم أظن أبدًا أنه قد يأتي اليوم وأعترف فيه أنني مللتُ النوم حقًّا وهُناك جزء بداخلي كان يُريد أن يرى يمَّان، هل هو هنا أم ذهب لمنزله؟ تجولت حتى سمعت صوته، لم أعلم كيف أصبحت مثل الفتاة الصغيرة التي سمعت صوت أمها بعد يوم دراسة طويل يعلن عن انتهائه وذهابها إلى غرفتها الصغيرة ولعبها، دخلت دون تفكير وجدت رجلًا عجوزًا يدندن مع صوت أم كلثوم في الخلفية، هل أصبح يمَّان يعالج مرضاه بالموسيقى أم ماذا؟! لم أستطع منع نفسي من الدخول لا أدري هل هو سحر



يمَّان أم دندنة الرجل أم وحدها أم كلثوم وما تستطيع فعله بقلبي منذ كُنت طفلة؟ ودون مقدمات وجدت الرجل يقول: «فتاتي الجميلة، تعالي اسمعي معانا».. نظر يمَّان في ترقب ليجدني أنا فيبتسم ثم يتنبه أنه ليس من المُفترض أن أفارق فراشي، ليس بعد.. ليقول: «تعالي اقعدي، متتحركيش كتير» لأقترب منه وأهمس له: «سأنتقم» ليضحك لأنه يعلم أنني لم أكن لأتجاهل الطريقة التي جعلني أبقى في المستشفى بها.. قال: «سأنتظر انتقامك على أحر من جمر» سألت الرجل عن اسمه ليقول: «أبو عبده» أتعجب أحيانًا لماذا يتخلى الشخص عن اسمه في سبيل أن يُلقب بـ»أبو» فُلان، هل من حُبه لابنه يُريد أن يلقب باسمه دائمًا، أم هي عدالة السماء أن الطفل يلقب باسم أبيه فيلقب الأب بطريقةٍ ما باسم ابنه أبد الدهر؟ قال لي وهو يهمس: «أم عبده بتحب أم كلثوم جدًّا» لأبتسم وأرفع يديَّ لأعدل خصلة هاربة من شعري ليرى وشمي الذي تجاهلته، لينتفض ويقول: «أنتِ المختارة!»، تنبه يمَّان معي ونظرنا له في ترقب منتظرين أن يُكمل ما قاله ليقول:

-بس انتِي جميلة.

جملته جعلتني أشعر بأن جمالي لعنة لطالما أخبرني



العديد أني جميلة وفاتنة، وأخبرني آخرون كم أنني سخيفة ومعدومة المشاعر، ولكنني مؤمنة أنني لستُ بفاتنة ولستُ بسخيفة.. فجمال الروح غير مرئي مثله مثل طبع السخافة؛ ولذلك أتخيل دائمًا أننا مثل الماء، شفافون للغاية.. وكُل ما يحاول اكتشافه البشر ما هو إلا ما بداخلهم من جمال؛ ولذلك كم رغبت لو أنني قبيحة وأن كُل جمالي ما هو إلا جمال عينيه فقط.. نظر يمَّان في صدمة وشعرت به مُرتعبًا أن يحاول أن يستفسر حتى.. صمت وكأن فوق رأسه طيرًا أبابيل وخائف أن يغمض عينيه حتى، هل سيكون مصيري مثل مصير إيروس؟ لأحاول تخفيف وطأة الخبر على يمَّان.. بطريقةٍ ما كُنت خائفة عليه أكثر من خوفي من استيعاب ما قاله «أبو عبده»..

لينظر لي أبو عبده ويُكمل كمن يحاول إنهاء رسالته قبل أن يتلفظ بآخر أنفاسه:

-مُحب ميلاد يا يمَّان، وادعي الأرض متتجمعش مع الشمس والقمر قبل ما تلاقيه.

سألته: إزاي الشمس والقمر والأرض يجتمعوا!، قصدك زي ما الشمس بتشرق ويبقى القمر لسة ف السما؟!

ليقول: اوصلوا لمُحب قبل أي ظاهرة كونية يتجمع



فيها الشمس والقمر وإلا...

ثم ينتفض أبو عبده وكأن الكون بأجمعه في حلقه يمنعه من التنفس ليحاول يمّان مساعدته ثم يقترب مني ويقول: «من الأفضل أن ترحلي، إنه يموت» ولكنني اقتربت منه، أمسكت يديه وبقيت أردد الشهادة حتى قالها وهو ينازع الموت وكأنه يتحداه وتتسابق روحه مع سرعة الموت حتى يستطيع التلفظ بها وأمسك يديَّ بقوة وكأنه يشكرني ثم تركهما، تركها ورحل.. لطالما تعجبت كيف لثوانٍ قليلة أن تفصل الحي عن الميت، أن ترحل من عالم إلى آخر في ثوانٍ معدودة، أن تفقد كُل شيء نعمت به فقط في غصون ثوانٍ، تفقد اسمك وهويتك، تفقد قدرتك الحرة على التحرك والتنفس وتصبح لا حول لك ولا قوة، تفقد كُل متاع الدنيا التي أضعت عُمرك في جمعها، وبعد أن أصبح كُل شيء لك، تصبح لا تنتمي لشيء على الإطلاق، لتكون آخر رغباتك في هذه الحياة هي التلفظ بشهادة ترضي بها الله قبل لقائه، ويخرج الخلق يهللون ويتحدثون عن علامات في وجهك تميزك أنك من عباد الله المؤمنين ويقولون: «وشه منور» رغم أنه رُبما يكون هذا سببه أيضًا توقف الدورة الدموية عن السريان، وأن وجهك قد فقد نضارته وحيويته وأصبح جمادًا لا يتحرك.



جال في خاطري كل ذاك بينما تفلت يد أبو عبده الباردة من يديَّ، الرجل الذي قال لي إني جميلة ورحل بعدها بلحظات، أعتقد أنها لعنتي أنا.. كُل من يلمسني يُدمر، وكُل من ألمسه يموت.. أغمضت عينيَّ وكأنني أحاول الخروج من عقلي لأجد دمعة تتلألأ بعيني يمَّان.. لأقترب منه وألمس وجهه وأمسحها ليقول لي: «شكرًا، لم أكن أستطيع البقاء دونك عاجزًا أمام موته»، لأقول: «لا أحد يستحق أن يموت وحيدًا، فقط عدني إذا كان مصيري مثل إيروس، أن أموت بين ذراعيك مثلما فعلت آيديا معه»، ليقترب ويقول: «مات إيروس من أجل آيديا وأعدك سأموت من أجلك، لن يمسك مكروه مادمت أتنفس»..

ولكن كان إيروس واقعًا في عشق آيديا فهل هذا اعتراف ضمني من يمَّان بأنه واقع في عشقي؟ وهل رغبتي بالموت بين ذراعيه هي اعترافي الخفي أنني أريد أن أبقى أبد الدهر معه أو على الأقل دهري أنا؟ كم هو شيء مناسب لنا أن يعترف لي بعشقه الأبدي بجانب جثة الرجل الذي أخبرني بطريقة ضمنية أيضًا أنني سألقى حتفي منذ دقائق! أغمضت عينيَّ وأنا أقر أنني سأتجاهل كُل تلك التساؤلات التي تجول بعقلي لأقول:



جال في خاطري كل ذاك بينما تفلت يد أبو عبده الباردة من يديَّ، الرجل الذي قال لي إني جميلة ورحل بعدها بلحظات، أعتقد أنها لعنتي أنا.. كُل من يلمسني يُدمر، وكُل من ألمسه يموت.. أغمضت عينيَّ وكأنني أحاول الخروج من عقلي لأجد دمعة تتلألأ بعيني يمَّان.. لأقترب منه وألمس وجهه وأمسحها ليقول لي: «شكرًا، لم أكن أستطيع البقاء دونك عاجزًا أمام موته»، لأقول: «لا أحد يستحق أن يموت وحيدًا، فقط عدني إذا كان مصيري مثل إيروس، أن أموت بين ذراعيك مثلما فعلت آيديا معه»، ليقترب ويقول: «مات إيروس من أجل آيديا وأعدك سأموت من أجلك، لن يمسك مكروه مادمت أتنفس»..

ولكن كان إيروس واقعًا في عشق آيديا فهل هذا اعتراف ضمني من يمَّان بأنه واقع في عشقي؟ وهل رغبتي بالموت بين ذراعيه هي اعترافي الخفي أنني أريد أن أبقى أبد الدهر معه أو على الأقل دهري أنا؟ كم هو شيء مناسب لنا أن يعترف لي بعشقه الأبدي بجانب جثة الرجل الذي أخبرني بطريقة ضمنية أيضًا أنني سألقى حتفي منذ دقائق! أغمضت عينيَّ وأنا أقرر أنني سأتجاهل كُل تلك التساؤلات التي تجول بعقلي لأقول:



-هل ستُحبني للأبد؟

ليبتسم وهو يقترب:

-و حتى ينتهي الأبد..

لتدخل جميلة وهي تصرخ حتى رأتني واقفة فهدأت لتقول وهي تبكي:

-قالولي إن المريض اللي هنا مات وقالولي إنهم شافوكي داخلة هنا و...

فقدت أعصابها وبقيت تبكي وأنا أنظر لها أنا ويمان في عدم استيعاب ولكنني ذهبت لها وأنا أكرر أنني بخير، فقط أقول هذه الجملة وكأنني أحاول إقناع نفسي بها أيضًا لأنظر ليمان مرتعبة أن يذكر أي شيء عن موت إيروس ليتأملنا في صمت، وبعدها دخلت إحدى الممرضات تضع ملاءة بيضاء فوق وجه أبو عبده لأصارع دمعة كانت تتحدى رهبة الموت لتتحرر من جسدي المكابر مع دموع جميلة الرقيقة التي تنعى رجلًا لا تعرفه فقط تعلم أنه لا يوجد أحد ينعاه أو يهتم لأمره، ليقول يمّان:

-هو سعيد دلوقتي، راح لأكتر حد بيحبه ف الدنيا.. راح لأم عبده.

ليقول يمّان وكأنه يأمرني: اذهبي إلى غرفتك الآن، يجب أن أودعه وداعًا يليق به..



إنني أنثى عنيدة لا تخضع، ولكنه حين قالها في تلك النبرة شعرت وكأنني مُسيرة، يجب أن أفعل ما يريده، وكأنني جُندي وهو قائدي ويجب أن أطيعه، أو أب وأنا طفلته الصغيرة التي تعلم دون أدنى شك أنه بالتأكيد لن يضرني.. كُنت أثق به ثقة ليست لها حدود وكأن شيئًا بداخلي يكرهه ذلك كثيرًا، فلم أثق أبدًا بأحد إلا وخذلني، لم أفتح قلبي لأحد إلا وطعنني طعنًا مُبرحًا وكأنه يلقنني درسًا ألا أكرر ذلك أبدًا مُجددًا، ولكن لا أعلم لماذا حطمت تلك الحواجز والسدود فقط من أجله، ولا أعلم كيف سينتهي بنا المطاف، ولكنني حتمًا أريد أن ينتهي بي بين ذراعيه، وما إن بدأت التحرك أنا وجميلة تجاه غرفتي وهو معنا حتى يتأكد أنني بخير حتى وجدت مالك أمامي، نظر لنا وكأنه يتعرض للخيانة ثم قال بنبرة لا تخلو من العتاب أو رُبما الألم:

-جيت أتطمن عليكِي.. إنتِي كويسة؟

ليمد يديه لي وما إن مددت يديَّ حتى رأى وشمي وسألني: ما هذا!

لأنظر له ولا أعلم ماذا علي أن أخبره، ولكنني نظرت ليمان وكأنني أستنجد به لتنظر جميلة وتتعجب أيضًا وتتساءل، لأعلم أنه حتى يمَّان لن يستطيع إنقاذي مادامت



جميلة طرفًا في هذا التساؤل ليقوم يمَّان باحتضاني أمامهما ويهمس: «لا بأس فقط جاريني».

ليكشف عن معصمه وينصدم مالك رغم علمه أننا واقعان في العشق، ولكنه لم يكن يتوقع أن يصارح كلانا الآخر بتلك السرعة أبدًا، لتقول جميلة بصدمة إنه يبدو ساحرًا، ليقول يمَّان بنبرة جعلتني أضحك عاليًا وكأنني أفرغ كل توتري بالضحك: ليس لديكِ أدنى فكرة كم هو ساحر—ويكمل همسًا- ولا حتى نحن.

ليبتسم مالك ويقول: هل لديكم أدنى فكرة عن معنى الوشم؟

لتجحظ عينا يمَّان وهو يتساءل:

هل لديك أنت؟

ليبتسم مالك ويقول: كم من الحماقة أن تضع وشمًا دون أن تعلم معناه!

لأمسك يد يمَّان قبل أن يتفوه بأي شيء، فإن مالك يستفزه فقط ليعلم، ولكنه في الحقيقة لا يعلم، وإلا كان فهم أنه ليس وشمًا حقيقيًّا وليس بإرادتنا الحُرة، ولكنها طريقة مالك المُعتادة في استفزاز من أمامه حتى يعترف بكُل شيء فقط ليوضح له الحقيقة التي لا يفقه شيئًا عنها.. ولكن لم أستطع منع نفسي من التساؤل: هل يعرف على



الأقل أي معنى حتى وإن لم يكن حقيقيًّا؟ هل رآه في كتابٍ ما قرأه سابقًا.. فلطالما كان مالك شغوفًا بروعة الإغريق وفنهم عامة والميثولوجية الإغريقية خاصة، ولذلك راودني شك ولو بنسبة ضئيلة بمعرفته حقًّا معنى هذا الوشم ولكنني لم أكن لأخاطر بجعله يشعر بأنه شيء خارق للطبيعة، ولأن مالك يعرفني جيدًا بالتأكيد رأى الشك بعينيَّ ولذلك قرر الإفصاح عن بعض ما يعرفه ليقول:

-هذا وشم يرمز للأبدية في الميثولوجيا الإغريقية تأثرًا بأسطورة إيروس.

لأفزع أنا ويمان فيشد على يديَّ ويُكمل مالك وهو ينظر ليدينا دون أن يشيح بنظره عنا:

-إنهم يرمزون لها بـ» لعنة الحُب « يقول بعض المؤرخين إنها عن الإله إيروس إله الحُب والرغبة في الميثولوجيا حين وقع بعشق الحورية «آيديا» وكانت ثمرة ذلك العشق بشريين فتاة وولد توءمين ووقعا في عشق بعضهما البعض ولكن وقع في عشق الفتاة أيضًا رجل آخر كان السبب في مقتل حبيبها، والوشم لم يعرف أحد علاقته حتى الآن ولكن قالوا إن الأرض كانت تعترض على تلك العلاقة المُحرمة والحُب المستحيل، وتقول



أساطير أخرى إنه في كُل زمن يأتي شبيهان لهما ذكر وأنثى حتى يعيدا توازن الأرض، بعضهم يقول إنهما مماثلان لهما في الشكل، وآخرون يقولون في الروح، ولم يحاول أحدهم الوصول إلى الحقيقة حتى اليوم لإيمانهم بأنها مُجرد أسطورة ولكن يستخدم بعض الرسامين المثقفين هذا الوشم ويضعونه للعشاق دون إخبارهم بالأسطورة، ولكن من صنعه لكما فنان رديء واستخدم حبرًا رخيصًا.

صمتنا أنا ويمان ونظر كلانا للآخر بصدمة، يوجد آخرون حدث معهم ما حدث معنا.. رغبت حقًّا في أن أسأله عن تكملة الأحداث ولكنني أعلم أنه لا يعلم أكثر مما نعلم الآن، ولم يقطع تفكيري سوى أن يمَّان سحبني معه وهو يمشي مسرعًا حتى وصلنا لمكتبه، أغلق الباب وجلس على المكتب ووضع يديه على وجهه وهو يقول: «مُحب ميلاد»، لازم نروح له.. لازم نسافر النوبة!

لأنظر له في عدم استيعاب، ولكنني لم أرفض الفكرة فنحن في منتصف لعبة قدرية تمامًا وقع قبلنا فيها على مر العصور ربما الكثير ولكننا أبدًا لا نعرف مصيرهم رغم عدم وجود شبه بيني وبين إيروس في الملامح، ولا بين يمَّان وبين آيديا، ولكن رُبما كما قال مالك «بالروح»..



قررت أنني سأستمتع بما ستقدمه لي الحياة، فلم يعد أمامي الكثير من الوقت.

يمان

وضبت أمتعتي، وبالطبع إن كانت رؤى ستأتي لمكان فيجب أن تكون معها جميلة، وبعد إقناع جميلة بالذهاب معنا إلى رحلة لم تعلم سببها حق المعرفة بعد؛ لأن رؤى مرتعبة أن تعرف جميلة أنها ربما تفقد حياتها أثناء البحث عن الحقيقة، وبالطبع حين نذكر جميلة لابد أن يظهر منير؛ الدكتور القاسي الذي فوجئ بوجود نبض في قلبه مؤخرًا.. نحن الأربعة بقينا نستعد لرحلتنا، أنا أستعد لإنقاذ حياة رؤى، رؤى تستعد لمواجهة الحقيقة، جميلة لرؤية معابد الأقصر وأسوان البديعة، ومنير ليكسب قلب فتاته ويشاركها حُبها للفن؛ هي التي ترعرعت بين كاتب ورسامة تُقدر كُل ما هو جميل.

كانت لدينا فرصة الاختيار بين السفر للنوبة بالطائرة أو بالحافلة، ولأسبابٍ مُختلفة -وإن تشابهت باطنيًّا- رغبنا جميعًا بالذهاب بالطريقة المُرهقة، رُبما استعدادًا لما سنواجهه، ورُبما لنبقى لأطول وقت معًا قبل أن نستفز



القدر والنهاية.. وتجاهلنا أنا ورؤى كُل ما علمناه ولم نتحدث عنه، كُنا مثل طالبين في المرحلة الجامعية مراهقين في أول رحلة لهما معًا مع الجامعة بعد اعترافهما بالعشق.. الكثير من الضحك، الكثير من النظرات المُربكة والخجل، وعلى الرغم من ذلك بقي جزء بداخلنا لم ينسَ سبب الرحلة الأساسي، ولكن ربما رغبنا بالاستمتاع والتناسي لأننا نعلم أننا حين ينتهي كُل شيء بطريقةٍ ما لن نكون أبدًا كما كُنا.. الإدراك مُرهق، مؤلم.. قال كافكا: «إذا كان هُناك ما هو أشد خطورة من الإفراط في المخدرات فمن دون شك هو الإفراط في الوعي وإدراك الأشياء».. أدركت حقيقة تلك المقولة على مرضاي، فكلما جاء مريض في مرحلة بدائية من مرض خطير يكون كمن أصابته الصاعقة من هول الحقيقة، أما عندما يأتي مريض في مرحلة متأخرة رغم مروره بنفس مراحل ألم المريض في المرحلة البدائية ولكنه يكون أهدأ وكأنه مر بالصعب ولم يبق الكثير من الوقت أو أنه تهيأ بطريقةٍ ما أن النهاية اقتربت وحتمية وفقد الأمل، أما من لديه أمل فيُصاب دائمًا بخيبة لأنه ينتظر ويتوقع شيئًا حتى وإن لم يكن الأفضل.. رُبما في النهاية ألا ننتظر ولا نتوقع ولا نأمل هو أفضل شيء، فعندما يحدث ما لم تنتظره



ستشعر بالسعادة لأنك لم تتوقعه، وإذا لم يأت فلن تتحطم لأنك لم تنتظره قَطُّ.

قطع أفكاري رأس رؤى وهي تميل على كتفي وكأن جسدي بأكمله تخدر وكُل ذرة إحساس انتقلت لموضع رأسها احتفالًا بقدومها الذي يزلزل كياني، ظننتها نائمة ولكن وصل صوتها المُحبب لقلبي إلى أذني وهي تقول:

-إذا كانت لديك حُرية الاختيار، أتتبع قلبك أم عقلك؟

قفزتْ لعقلي الكثير من الأفكار التي قد تدفعها لتسأل هذا السؤال وعن أسبابه، ولكن لم تقفز الإجابة فبقيت صامتًا لمدة لا أعلم هل بدت لها طويلة أم لا، أظن أنها ظنت أني أفكر بالإجابة؛ ولذلك حركت رأسها لتبتعد ولكن كالميت الذي فجأة بثت به الروح وضعت يدي على رأسها لأمنعها من التحرك، شعرت بخواءٍ بروحي حين تحركتْ ليس فقط كتفي لأقول كأنني أعطيها عقلي قربانًا لتبقى وقلبي إجابة لترضى، لأجيب بسرعة تنفس من توقف قلبه للحظات ثم يجمع الأوكسجين وكأنه يلتقط ما لم ينله من حقه من أنفاسه في هذا العالم البائس:

-قلبي..

لتضع رأسها باستكانة مجددًا لأبتسم وأجدها تقول:

-و لكن ماذا لو أن قلبك مُفتت، أي جزء منه ستتبع؟



أحيانًا تفحمني فلسفتها في الحياة، أجدني أمامها كطفل صغير يجلس بين ذراعي أمه ويتلقن منها خبراتها في الحياة لأقول وكأنني أتبع نفس النهج:

-سأتبع من يجمع فتات قلبي ويفك شفراته وكأنه لغز أو لعنة إغريقية قديمة.

لتبتسم وتتأمل الطريق بصمت لننظر إلى مُنير وجميلة وهي نائمة فوق كتفه وهو واضع رأسه على رأسها في حنان بعدما حاول جميع الركاب إقناعهم بأنهم يُمكن أن يتبادلوا المقاعد في «الريست» ولا بأس أن يجلس منير الآن في مقعده وأن يتركها تجلس بجانب النافذة.. يبدوان مثل الطفلين اللذين أرهقهما السفر واللعب فناما ونسيا نزاعاتهم الطويلة، كانا يبدوان مثل التوءمين رُبما ويبدوان مقربين للغاية مما جعلنا نتعجب ولكننا ابتسمنا في صمت حتى نزلنا في إحدى الاستراحات.. رغبت أن أشرب قهوة، فأنا فقط أحتاج إلى بعض الكافيين لأستطيع مجابهة كُل ما نمر به وكُل ما سنواجهه حين نصل.. كُلما اقتربنا شعرت بخوفٍ بداخلي ينمو ويكبر، رغبت لو أنني أضمها وأخبئها بداخلي حتى لا يستطيع أن ينال منها سوء، هذه المرة بقيت نائمة بالحافلة لم تستيقظ، أو رُبما لم تكن ترغب في معرفة أن هذه آخر استراحة،



آخر استراحة في الطريق والرحلة.. ستبدأ المشقة.. أعلم أنها مرتعبة وخائفة، أعلم أنها تحاول ادعاء العكس وقوتها الزائفة هذه تهزمني، تكبلني، تجعلني أشعر وكأنني مُقيد وليس هُناك ما أستطيع فعله؛ أنا العبد الفقير أمام كُل هذه الأمور القدرية التي تستهدفنا فقط لكوننا شبيهين لخلق يرفضون الفراق منذ عشرات القرون.. تذكرت بسنت ودورها العظيم في لعبة قدرية لم تكن تدري دورها الفعلي فيها، لو تعلم أنها سبب معرفتي برؤى بإجباري على الذهاب معها إلى ذلك الجاليري ذاك اليوم.. فكرت للحظات هل لو عاد الزمن وكُنت أعلم أنني ربما سأكون سبب موتها أو احتماليته حتى لذهبت إلى الجاليري ذلك اليوم؟ هل كُنت ذهبت لها بخطًى ثابتة مثلما فعلت؟.. هل كُنت لأفرط في فرصتي في الوقوع في العشق للحفاظ عليها أم أنني بتلك الأنانية التي تجعلني أفضل أن أذهب معها في رحلة النوبة لنكتشف كيف نحررها من موتها الحتمي؟!

لا أعلم، كم هو غريب الإنسان! رغم حُبه الشديد للطرف الآخر ولكنه دائمًا يختار نفسه بطريقةٍ ما، يرفض التخلي عن أحد أحلامه ودائمًا يظن أنه يستطيع أن يفعل المستحيل رغم أنه أحيانًا حتى المُمكن يكون صعبًا



ومُرهقًا، وأنا مثلهم رغم يقيني أنني واقع بعشقها إلا أنني حتى بالتخيل لم أكن لأقبل بالتخلي عنها.. سأنقذها، حتمًا سأنقذها!

ما هي إلا ساعات قليلة حتى وصلنا، منير وجميلة ناما معظم الوقت، غفت رؤى لفترة لا أستطيع تحديدها لأن كونها ساكنة على كتفي جعلني أشعر بأنها فترة قصيرة ولكن دون سماع صوتها جعلني أشعر وكأنها أعوام.. لا أعلم ما فعلته تلك الفتاة بقلبي ولكن أعلم ما لم تفعله، لم تحاول تغيير ماهية قلبي.. لم تغير كونه صخرًا أبدًا ولكنها تقبلته كما هو، تقبلته ولمسته فحولته من صخرة معدومة الروح بفنها إلى تمثال، ومع كُل لمسة منها نحتته كما يجب أن يكون وليس كما رغبت هي أن يكون وبطريقةٍ ما كان هذا كُل شيء.. كان الأمر أشبه بقدوم أمك للمنزل بعد أيامٍ عديدة من الخراب والعشوائية فبلمساتها ترتب كُل شيء مجددًا، وتُرتب كل ما أفسدته أنت.. هي رتبت بداخلي ما أفسدته الحياة، أصلحت بلمساتها ذلك الخراب.. كنست خيبات الماضي ووضعت زهورًا بين ندوبي فلم تعد تفوح منها رائحة الذكريات، هي أصلحت فوضاي.. وكأني طفل حديث الولادة لم يمس قلبه حزن، لم يصبه الخذلان، لم تعرف الحياة طريقًا



لتعنيفه وكأنها ليس لديها كتالوج قلبه بعد.

قطع أفكاري صوت رجل وهو يقول: «حضرتك الدكتور يمَّان؟» لأرد عليه بريبة لا أعلم هل أقول له نعم أم لا.. رغبت أن أقول: «على حسب» ولكنني لم أرغب أن يظنني خائف فحاولت قولها بحس فكاهي جعل منير وجميلة يضحكان، ولكن رؤى كانت تشعر بنفس الريبة ليبتسم الرجل وكأنه يطلب مني بذوق ألا أمزح معه مجددًا «عم مُحب جاللي أستناك»..

لأبتسم له في ود وكأنه اعتذار ضمني:

-اتأخرنا عليك؟

ليقول بنبرة أهل النوبة الساحرة:

-إحنا عبيد الرب وربنا مبيتأخرش، بيوصل كُل واحد في المعاد اللي لازم يوصل فيه يا دكتور.

لأبتسم وأقول بصوت خافت: «ونِعم بالله!» وأنا أنظر لرؤى لتبتسم بخجل وهي تعلم أنني أعنيها هي.

ذهبنا معه بسيارته جميعًا بأمتعتنا الكثيرة للغاية فقط لأن جميلة أحضرت معها أكثر من ثلاث حقائب وأحضر كل منا حقيبة، حتى رؤى، لا أعلم هل هذه طبيعتها أم أنها تفريغ للخوف الذي بداخلها، إنها ليس لديها الوقت الكافي لأن ترتدي محتويات أكثر من ثلاث حقائب مثلما تظن



جميلة!

تأملنا النيل رغم أنه مماثل لنيل القاهرة ولكن له رائحة مميزة خاصة به وحده، وكأنه يبدو حيًّا، مثلهم.. لديه روحهم ولكنتهم الخفيفة على الروح وبشرتهم، على عكس نيل القاهرة الذي يشعر بالوحدة رغم الملايين المتوافدة عليه يوميًا إلا انه يتحرق شوقًا لونيس رغما عن ذلك.. رُبما لذلك يبدو بائسًا ويبدو رتيبًا وهادئًا.. وتأملنا الطرق الممهدة والبيوت البسيطة الهادئة حتى وصلنا للسكن، قال لنا «عم رفاعي» أن نرتاح قليلًا لأن أمامنا يومًا مُرهقًا بعد.. قال لمنير وجميلة أنهما سيكون لديهما مرشد يساعدهما في التنقل ورؤية المعابد، وطلب من جميلة أن تلبس ما هو مناسب للطقس حتى لا تمرض من الحرارة، تساءلت جميلة لماذا لن نذهب معها، ولكن أنقذنا عم رفاعي من التفسير وقال: «عم مُحب يريدهما وحدهما، ولكن صدقيني إنه يتحرق شوقًا للتعرف عليكِ أيتها الصغيرة» لتبتسم؛ فبالرغم من كُل شيء أعلم أنها سعيدة لأنها ستتجول مع منير، أستطيع رؤية ذلك من تصرفاتهما وحروفهما وجدالهما المستمر.

أمسكت يد رؤى وأنا أسألها: هل أنتِ مستعدة؟

لتبتسم لي وكأنها تقول: «أبدًا لستُ مستعدة ولكنني



مُجبرة» ولكن تختصر كُل الجملة السابقة وتقول في نبرة طفلة تذهب إلى المدرسة لليوم الأول: مستعدة..

وتطبق بإحكام على يديَّ وكأنها تريد أن تتحد مع جسدي لعل ذلك الخوف يختفي رويدًا رويدًا وكأنها تتحامى بيدي من الخوف وأنها بلمسي ستواجه كُل ما يقلقها.. ارتجف قلبي للحظات ثم عاد لطبيعته، وطبيعته معها هي الاعتياد على ذلك الارتجاف، أن يتأقلم على الوقوع في عشق نبرة صوتها مجددًا ومجددًا في كُل مرة تتحدث وكُل مرة بطريقةٍ مختلفة تمامًا عما قبلها.. أهو تأثير الوشم أم أنني واقع بعشقها لتلك الدرجة المرَضية! لم أكن أبالي فأنا أعلم أن ما أشعر به حقيقي للغاية، أنا مُتيقن من تلك الحقيقة.

دخلنا إلى بيت عم مُحب، كان بيتًا عاديًا من الطوب الأحمر ولكنه مطلي باللون الأزرق وأمامه حديقة صغيرة بها ألوان مختلفة من الزهور وأنواع لم يسبق لي رؤيتها حتى، دخلنا المنزل لنجد أثاثًا بسيطًا للغاية ولكنْ به روح تجعلنا نشعر وكأنه أفضل من البيت الأبيض حتى.. مكون من طابقين وبدروم، كُلما اقتربنا خطوة زاد التصاق رؤى بي كطفلة تتحامى بأبيها، ضممتها بذراعي وحين قال عم رفاعي: «إنهم يعدون الغداء ويجب أن نأكل معًا» كُنت



أعلم أنه لا مهرب من ذلك، فالكرم عندهم طبع وعادة لا يُمكن رفض دعوتهم على الطعام وإلا اعتبروها إهانة، وبالتأكيد لا نريد أن نغضب الرجل الذي يستطيع إنقاذنا من ذلك العبث.. ما هي إلا دقائق حتى رأيناه.. رجل في السبعين من عُمره رُبما، أصلع مع وجود بعض الشعيرات القليلة التي تعاند في كبرياء، بشرته قمحية ليست بسمار أهل النوبة.. يُمكنك أن ترى حكمته في تجاعيده، أكاد أقسم أن عينيه بالخطوط الحمراء بداخلها تبدو وكأنها روحه المتهشمة.. قطع تأملنا له وكأننا نحفظ ملامحه صوته الرخيم وهو يلمس معصمي ويحرك يديَّ ليستطيع رؤية الوشم رؤية تامة ليقول: «أمامنا سبعة أيام على الكسوف الحلقي للشمس» لتسأل رؤى عن ماهية الكسوف الحلقي ليقول لها:

-الكسوف الحلقي هو عندما تجتمع الشمس والقمر والأرض على خط واحد تمامًا نظرًا لأن بُعد مسافة القمر في مداره حول الأرض تختلف من وقت لآخر، في تلك الأثناء سوف يقع القمر بعيدًا عن الأرض فإن حجمه لن يكون كبيرًا بشكل كافٍ لتغطية قرص الشمس بشكل كامل؛ لذا سيحدث كسوف حلقي للشمس في ذروته يستقر قرص القمر المعتم أمام قرص الشمس تاركًا حلقة كاملة



من ضوء الشمس حول أطرافه..

لأتذكر قول «أبو عبده»: «قبل ما الشمس والقمر والأرض يتقابلوا» لأتساءل: ما علاقتنا بالكسوف الحلقي والفلك وذلك الوشم؟!

ليقول عم مُحب وهو يضحك من سذاجتنا:

كُل شيء له ثغرة، وثغرة عالم البرزخ هي الظواهر الكونية التي تشمل الشمس والقمر والأرض.. فلخداع حاجز قوي ومنيع مثل البرزخ يجب أن يكون في أضعف حالاته، وذلك عندما يفقد دعم الشمس والقمر وقوة التجاذب بينهما ويكون مُمزقًا ويختل توازنه لدقائق معدودة.. ويأتي دور ذلك الوشم في هذا الوقت.

سأخبركما بكُل شيء في الوقت المناسب!

لأشعر بالغضب يسري بعروقي وأنا أقول: ليس هُناك وقت مناسب، نحن نحارب قوًى خفية هُنا وسحرًا أسود أم سفليًّا لا أعلم.. كُل دقيقة هي اللحظة المناسبة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.. أخبرنا بكُل شيء الآن!

لتنظر رؤى في خوف وتلمس يديَّ طلبًا مني أن أهدأ.. نظر لي عم مُحب بغضب لعدم احترامي له، ولكنني أظنه تفهم حالتي لأنه لم يعلق فقط أكمل.. ويا ليته لم يفعل، حقًّا أحيانًا الجهل بالشيء ألطف وأهون من العلم



به والإجبار على التعامل معه.

آيديا

يجب أن أكون قوية لأجتمع أنا وإيروس، من المؤكد أن هُناك طريقة.. هنالك دائمًا طريقة، هنالك دائمًا ثغرة ولكن نحن لم نكتشفها بعد.

توقفت عن البُكاء وأنا مُلطخة بدمائه.. وكأنني تحولت لمسخٍ ما، أخذتُ جسد إيروس إلى الكوخ.. جلست أمامه، قبلت يديه الباردة وأنا أهلوس بكلام لم أستطع تمييزه ولكنه دائمًا يفهمني، لطالما علم ما بداخلي حتى لو لم أتحدث، لطالما علم كيف يجعلني أسعد امرأة على وجه الأرض.. كان يتفنن في تدليلي وكأن يتحرش بأنوثتي كما كان يتحرش بأرواح أعدائه.. كان يقتلهم ألمًا ويقتلني شغفًا، خلعت عنه قميصه.. تأملت مكان إصابته، لو كان هُنا الآن لرغب في نحت تمثال له ولإصابته وقررت أن أفعل ذلك عنه.. سأنحته، سأتذكر ما حييت أن حبيبي ضحى بنفسه لأجلي، ثم تذكرت أنني لا أعلم النحت فجلستُ أبكي ولكن طرأ على بالي كتاب أمي.. كان لها



كتاب عن النحت.. قال لي أبي يومًا ذلك.. ذهبت لغرفته وبحثت في أشياء أمي حتى وجدت الكتاب ولكن ما بداخله لم يكن عن النحت.. كان عن السحر!

تأملته للحظات وأنا لا أفهم ماذا كانت تفعل أمي بكتاب السِّحر، وحين فتحته وجدت ببدايته جملة مكتوبة بحروف غريبة، كانت أمي تعلمني تلك اللغة حين كُنت صغيرة ولكنني لا أستطيع تذكرها جيدًا.. أخذت الكتاب وذهبت لغرفتي وأغلقت الباب جيدًا لأكتشف ما حاول الجميع إخفاءه عني طوال أعوامي السابقة.

جلستُ على الأرض وبحثت عن الورق الذي جعلتني أكتب بداخله تلك الحروف، بحثت في كُل مكان فأنا متيقنة أنني لم أتخلص منه فهو الشيء الوحيد الذي تبقى لي من أمي.. وجدت الورق، تأملته قليلًا وأنا أتذكر رائحة أمي، حضنها.. كان بداخل ضلوعها دفء وحنان لم أجده أبدًا إلا بداخل ضلوع إيروس.. بطريقةٍ ما كُنت أشعر دائمًا أنني في أمان بين ضلوعه ولن يمسني سوء مثلما شعرت معها، ولكن لماذا مُقدر على قلبي الفراق، وكأن إحساس الأمان مُحرم علي، وكأنني لن أنعم بالسكينة والراحة أبدًا وكأنني ملعونة.. سأفقد كُل من أشعر بين ضلوعه بأن كُل شيء بخير.



لأحاول التوقف عن البُكاء لرثاء أمي وحبيبي وأفك رموز الجملة المكتوبة بالحروف التي علمتني إياها أمي.. بقيت أفك شفراتها حتى وجدت أنها تعني:

«لا تجعليهم يتحكمون في سحرك، آيديا اذهبي إلى زيوس»..

تذكرت حين كنت طفلة كانت تستطيع تحريك الريش دون لمسه عندما تحرك يدها فوقه وتغمض عينيها وتتفوه بشيءٍ ما، تذكرت حين بلغت السابعة من عُمري كُنت أستطيع تحريك الأشياء من على بُعد حين كُنت لا أرغب في النهوض من مكاني.. وحين أخبرت أبي بذلك أحضر لي قلادة هدية لأتوقف عن ذلك، ومن ذلك الحين لم أحاول ولم أستطع تحريك أي شيء.. جلستُ للحظات أتأمل الرسالة التي كتبتها أمي.. إذًا هي ساحرة وأنا كذلك ولكن كيف يتحكمون بي؟ كيف لهم القدرة على ترويض تلك الطاقة الكامنة بروحي.. هل هي وراثة من أمي أم هبة من الإله؟ بقيت أتصفح ذلك الكتاب حتى وجدت جُملة أخرى برموز غريبة وبجانبها شكل نجوم وبداخلها شفرات.. كان بورقي مثل هذه الأشياء، كانت أمي تحاول تعليمي السحر ولكن لم يسعفها الوقت.. حاولت فك شفرات تلك الجملة.. كُنت أعلم أنها تحدثني أنا فقط لأنها كتبتها بالحروف التي



جعلتني أحفظها عن ظهر قلب حين كُنت طفلة وأبدًا لم نتكلم أمام أبي عنها.. حتى وجدتها تعني:

«اذهبي لقبري».

هذه الجُملة تكشف الكثير من الكذب، أو ربما فقط تظهر الحقيقة الغامضة.. كيف لها أن تعلم أنها ستموت! هذا يعني أن موت أمي لم يكن طبيعيًّا؛ فهي لم تمرض، هي فقط اختفت!

وكأن ذلك الكتاب هو بابي إلى الحقيقة، هو بابي للعالم الآخر ولتغيير كُل شيء ظننت أنه ليس لدي القدرة على تغييره.

أنا حقًّا لم أذهب لقبر أمي قَط.. قَط لم أذهب لزيارتها، تذكرت جسد إيروس الفاني.. هل سأضعه في قبر ما أيضًا؟ هل فقدت حقي في لمسه وسماع صوته ولن يتحرك ليبارزني ويتركني أغلبه مجددًا؟ لن يقتل شعبي مجددًا؟ ولن أكرهه لذلك؟! هل مات المحارب القوي إيروس؟ هل هذه نهايته؟!

أخذت كتابها وخبأته في ثيابي وطلبت من أكثر جنود أبي الموثوقين -وأتذكر أنه كان معنا وقتما كانت أمي على قيد الحياة- أن يأخذني إلى قبرها.. بقيت أبكي حتى أشفق علي وأخذني ولكن جعلني أعده أنني لن أخبر أبي.



كُنت كالمغيبة، كُل شيء يحدث بسرعة ولم أستطع استيعاب شيء.. مات إيروس واكتشفت أن أمي ساحرة وتريدني أن أزور قبرها ورُبما مازلت أنا أيضًا ساحرة. لأدخل إلى المقابر الملكية.. هُنا يرقد كُل فرد من العائلة الملكية وكأنهم يبنون مملكتهم أيضًا في العالم الآخر.. مشيتُ وتأملت كُل الأجساد التي كان يتزلزل لها الخلق والمدن والعالم راكدة هُنا لا تستطيع أن تتحرك، ورُبما حتى لم يتبقَّ من أجسادهم شيء، مشيت وأنا أسخر من العالم والحياة التي نظنها باقية، المستقبل الذي نخطط له في حين أننا يُمكن أن نموت بعد ثوانٍ معدودة.. بقيت شاردة أتأمل لافتات الأسماء حتى وجدت قبر أمي، قال لي الجندي إنه سينتظرني بالخارج، جلست أمام القبر ولكنني شعرت بشيء غامض بداخلي يحركني وكأن هذا ليس المكان الصحيح.. شيء ما يحدث هُنا، لا أعلم ما هو ولكنني أظن أن أمي تحاول إخباري شيئًا.. قررت اتباع حدسي، أغمضت عينيَّ قليلًا وكأنني أحاول فقط أن أرى ما بداخلي وكأن رؤية العالم تشتتني، وبالفعل بدأت قدماي بالتحرك وكأن هُناك قوّى خفية تحركني لها وكأن هُناك تواصل بيني وبين الأرض رُبما.. بقيت هكذا لبعض الوقت حتى وصلت إلى وجهتي أظن، كان بداخلي شعور



أنني يجب أن ألمس الأرض، جلستُ على ركبتيَّ وأنا أتأمل السماء والأرض وما حولي.. كان المكان بعيدًا عن المقابر الملكية.. لم يكن حولي أي علامة على وجود أي شيء، كُنت كأني بصحراء جرداء.. حاولت التأكد أن عينيَّ مفتوحتان ولكنني لم أستطع تحريك يديَّ من على التُربة.. تحركت الرمال من تحت يدي وشعرت بشيء على صدري يحرقني.. تأملت صدري والقلادة التي تحترق فوقه.. حاولت النهوض ولكنني لم أستطع.. بقيت أصرخ ولكن بلا جدوى.. لم يكن حولي أي أحد ليساعدني، شعرت وكأنني مُكبلة، لا أستطيع التحرك وصدري يؤلمني وقلادتي المُفضلة تحترق وإذ بصوت أمي يهمهم بكلمات أتذكرها جيدًا لأبكي وأنا أنادي عليها لتقول بصوتٍ دافئ:

-أعلم أنكِ تتألمين، ولكن علي تخليصك من قيودك.. علي أن أحررك.

لأبكي وأنا أنادي عليها وكأنها كنزي الضائع.. بقيت أقول: «أمي» وسط صوت نحيبي المتقطع وصراخي المتألم وكأنني أستنجد بحروف اسمها الثلاث التي لطالما ساعدتني على تخطي كُل شيء حتى رغم عدم وجودها.

كُنت أشعر وكأن روحي تُنتزع من داخلي.. بقيت

أرى ذكريات لنا معًا لا أعلم إن حدثت أم لا.. كُنت صغيرة وكانت معي وكنا نتدرب كثيرًا على مثل تلك التعاويذ.. العديد من الذكريات التي لا أعلم عنها شيئًا، هل هي أمي أم أن ساحرًا قويًّا يعبث بعقلي؟ ولكن ألم أكن أنا التي حاولت البحث عن كتاب النحت الذي أصبح سحرًا؟ ولكن لماذا دفن أبي جسدها بعيدًا عن المقابر الملكية؟ لماذا دفنها وحيدة في ذلك المنفى؟ ثم رأيت أبشع ما يُمكن أن أراه!

رأيت أبي وأمي، رأيتهما يرقصان بغرفتهما.. كانت تتراقص وتتمايل بين يديه في حُب وكأنها عباد شمس لا يعلم في حياته سوى شمسه التي يتبعها طوال اليوم وحين تغيب ينتظرها حتى تشرق مجددًا.. كانت تنظر له في حُب وهي واضعة رأسها على كتفه وكأنها لا تريد من هذا العالم الكبير غير ضيق حيز ضلوعه، راح يُقبِّلها وكانت مغمضة عينيها في شغف عاشقة وما إن فتحت عينيها وإذ به يبث بصدرها سيفًا.. كانت تنظر له بخيبة أمل، كانت تشعر بالخيانة، نزلت من عينيها دمعة وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها وهي تصارع الموت.. همست: «آيديا».. كان ينظر لها وعيناه دامعتان ويقول لها وهي تنتفض بين يديه: «كان يجب أن أنقذ آيديا منكِ» ثم قبَّلها وبكى.. بقيت



أبكي وكأنني أفقدها مجددًا، وكأنني طفلة صغيرة تعرف مجددًا أنها لن تستطيع أن ترى أمها، كم من الظلم أن تفقد أحدًا مرتين! مرة حين تظنه مات والأخرى حين تفقد ذاتك معه عندما تقتلك الحقيقة.. كيف يكون أبي هو من حرمني من أمي؟ لا شك أنها مازالت غاضبة، وهذه هي الذكرى الأولى التي تريني إياها.. ما هي إلا لحظات حتى تحررت من قلادتي التي بقيت تزين رقبتي لأعوام، سقطت أرضًا وهي متفحمة وبقايا سوادها على رقبتي ولم أستطع منع نفسي من البُكاء، وشعرت بهالة حولي وكأنني أكتسب قوة عظيمة.. بقيت أبكي وكأن الكوكب بأجمعه يشاركني ألمي.. بكيت أمي وبكيت إيروس، وتجمعت حولي الرمال وكانت تتحرك كإعصار فوق رأسي ثم حدث رعد وبرق ثم انهمر المطر.. كان كُل شيء غريبًا وكأن كُل شيء يشاركني غضبي.. إذًا أنا ساحرة! ساحرة متألمة وغاضبة.. شعرت بخوف للحظات على أبي من غضبي الشديد ولكنني لم أبالِ؛ فهو لم يخف على قلبي الصغير من التحطم حين أفقد أمي.

حاولت الوصول إلى المقابر الملكية مجددًا ولكنني لم أجد طريقي فقررت اتباع حدسي.. مشيتُ بالاتجاه المعاكس وإذ بي بجانب الجندي الذي هو سبب اكتشافي الحقيقة..

نظرت له وأخبرته أن ينسى تمامًا أنه أوصلني إلى المقابر.. نظر لي وكأنه مُغيب!

شعرت أنه رُبما كان للسحر دور في ذلك.. بقيت أتأمل كُل شيء يبدو مختلفًا تمامًا وكأن كُل شيء أصبح بطريقةٍ ما ساحرًا أكثر -فعليًا- تبدو السماء أكثر زرقة، والبحر يبدو وكأنه يرحب بمقدمي، وتبدو الرياح وكأنها صديقتي الخفية.. وصلت للكوخ.. أخذت الكتاب وذهبت لإيروس، جلست بجواره ووضعت يدي على ندوبه كمحاولةٍ مني أن أشفيه، ولكنه كان قد فارق الحياة، ولكنها كانت محاولة لا بأس بها.. فرأيته في عقلي، وكأنني استحضرته بطريقةٍ ما.. وهُنا جاءت لي الفكرة التي ستغير مجري حياتي أنا وإيروس.

رؤى

وصلنا النوبة بعد رحلة دامت لساعات، وافترقنا عن منير وجميلة بناءً على طلب مني.. إنها حرب ليست بحربنا ولكننا مُجبرون على القتال لإنقاذ أرواحنا، إن كان سيمسنا سوء فلن أسمح لآيديا أو إيروس أو أيٍّ كان أن



يصيبهما بسوء.. نحن المعنيون الوحيدون هُنا، إنها حرب مُجبرون على خوضها ولكننا أبدًا لسنا مُجبرين على المخاطرة بخسارة كُل من نهتم لأمرهم.. وافقني يمّان الرأي وأقنعنا عم مُحب بعدما تواصلنا معه بأن يضع لهما برنامجًا شاقًا يجعلهما ينسيان حتى أنفسهما ليس نحن فقط.. وصلنا إلى منزله ورافقتني نساء إلى غرفة وجعلنني ألبس ثيابًا تناسب ثقافتهن، وللحقيقة لم أمانع بل أحببتُ تفاصيل وألوان الثوب الذي ارتديته وذلك الحجاب الذي أخفى نصف شعري العلوي.. جلست أنا ويمان مع عم مُحب وبعد الكثير من التفاصيل عن الكسوف الحلقي وعالم البرزخ فقد يمّان أعصابه وقدرته على التفكير المنطقي الهادئ وبقي يصرخ بغضب لعدم استيعابه كيف يُمكن لسحر أن يتحدى إرادة الله.. ولكن ما أؤمن به أنه لا يُمكن أن يحدث شيء إلا بإرادته وعلمه؛ ولذلك اعتبرته اختبارًا، أو رُبما ابتلاء ليس مُجرد اختبار..

أعني: ألن نموت جميعنا في النهاية؟!

و لكلٍّ منا ميعادٍ محدد سيموت فيه؟!

إذًا لماذا نعاند لهذا الحد؟ لماذا نحاول تحدي القدر..

إن لم يكن مُقدرًا لأحد الموت لو اجتمع الإنس والجن والعالم بأجمعه فلن يصيبه سوء إلا إذا كتبه الله عليه..



لذلك لم أكن غاضبة، فإذا كان مُقدرًا لي الموت فسأموت في الدقيقة والثانية التي يُريدها الله وحده ولن يتحكم في قدري سواه، ولكن يمَّان لا يستطيع استيعاب ذلك.. قطع تفكيري صوت عم مُحب وهو يكمل متجاهلًا نبرة يمَّان الغاضبة:

-يكون الذكر والأنثى الموشومان شبيهين للفقيدين آيديا وإيروس.. خصيصًا في الروح، يكونان المختارين من ملايين الخلق في هذا العصر لأداء تلك المهمة المُستحيلة.

لأسأله: ولكن لماذا يجب أن يكونا متشابهين في الروح؟ أعني أليس المهم أن يكون هناك ذكر وأنثى شبيهين للجسد الذي أحبوه؟

ليقول عم مُحب:

ليس لآيديا، فآيديا تؤمن أنهما إذا رجعا للعالم في شخصيتين مختلفتين فرُبما سيتخلى الحُب عنهما، ولذلك اهتمت خصيصًا بالروح أكثر من الجسد؛ لأن الروح باقية أما الجسد فهو فانٍ.

لنصمت جميعنا قليلًا ثم يقول يمَّان: هل هُناك حل لهذه الأحجية؟

ليصمت عم مُحب قليلًا ثم يجيب: الحل في اللعنة.

نتأمله بصمت منتظرين إياه أن يجيب، وينتظرنا هو أن



نفهم دون حروفه، أظن ليفقد الأمل حين وجدنا ننظر له في بلاهة ويقول:

الوشم، الوشم هو الأحجية.. إن علمتما كيف تفكان شفراته ستنجوان!

ليسأل يمَّان بنبرة ترجٍّ: وإن لم نفعل!

ويمسك يدي قبل أن يجيب عم مُحب:

سيموت أحدكما؛ لأن الأرض تسعى للتوازن وآخر ما تريده هو ساحرة قوية مثل آيديا على ظهر البسيطة مجددًا تعبث بسحرها في توازن الطبيعة.. فسيقتل سببها الوحيد ورغبتها الوحيدة في الرجوع بمقتل من يمثل حبيبها إيروس.. سيموت من يُمثل إيروس كما مات هو في الحياة السابقة.. سيتم التضحية بواحد منكما حتى يتم وأد فرصة وجودهما لهذا العصر..

لأغمض عينيَّ، أقسم أن من قال «شريط حياتي مر أمامي» نجا من الموت لأنني تذكرت فجأة كُل شيء.. تذكرت أمي وأبي وجميلة ومالك وكُل شخص آلمته والأوقات السيئة والجيدة.. أغمضت عينيَّ وهجمت على الذكريات ولا أعلم كم مر من وقت ولكنني أفقت على صوت يمَّان وهو يقول: لن أسمح بأن يمسَّكِ سوء..

ثم يسأل عم مُحب: وماذا إن فككنا شفرة الوشم!



ليقول عم مُحب في حزن: لا أعلم، لم يفعل أحد هذا من قبل.

ليجلس يمّان في صدمة ولأنظر في لامُبالاة وأسأله:

-أنا إيروس.. كيف يُمكن أن تكون الفتاة هي الرجل؟!

ليقول عم مُحب: لم تهتم آيديا بالجنس؛ لذلك لم تهتم بجنس حامل روحها بل اهتمت فقط بتشابه الأرواح حتى يقعا هي وشبيه إيروس في العشق دائمًا وأبدًا بغض النظر عن جنسها أو جنسه.

لأقول وأنا أضحك:

حسنًا الآن نحن نحارب ساحرة قوية ومحاربًا شجاعًا أحمقَ وقع في عشقها، ولا يكون سوى أنا، وإن لم نفك شفرة ذلك الوشم اللعين سأموت حتى لا تجتمع مع حبيبها في ليلة الكسوف الحلقي.. هل هذا كابوس أم فيلم غبي؟!

لينظر لي يمّان وكأنه يرغب أن أفرغ غضبي أكثر، وكأن صمتي هذا يقلقه.

ليقول عم مُحب بألم:

أنا فقدت حبيبتي لأنها كانت موشومة، أنا آخر من وقع عليه اختيار آيديا.. لذلك أعلم جيدًا ما تشعرين به، وسأريكما كُل ما حاولت فكه من شفرات الوشم حتى الآن رُبما يساعدكما في حل شيء، وسأكون بجانبكما دائمًا.



ليقول يمَّان: لماذا تعطينا آيديا سبعة أيام فقط؟ أو لماذا تعطينا مهلة من الأساس إذا كانت تريد أجسادنا؟

ليقول عم مُحب: لكُل سحر مُقابل، السحر يأخذ قوته من الأرض.. وحدها الأرض تستطيع العبث معها؛ ولذلك مقابل حياتكما هي مجبرة على إعطائكما فُرصة النجاة وإن كانت قليلة، أما بالنسبة للسبعة أيام فرقم سبعة يرمز للكمال بالنسبة للأرض والطبيعة، فالسماوات سبع، والأيام سبعة، وطبقات الأرض ذاتها سبع؛ ولذلك رقم سبعة له سحره الخاص، ولكن عليكما أن تحذرا من مكرها.. يُمكن أن تضللكما بالأحلام.

ليقول يمَّان في نظرة مريبة: كيف علمت أننا نحلم بها؟!

لينظر بحدة وهو يقول: هذا ما حدث معي.

ليطلب منا الذهاب معه إلى غرفته ليرينا ما حاول فكه من شفرات الوشم، ونذهب معه، ولكن تبدو على يمَّان نظرات الحيرة، ولكنني تجاهلتها، فمن الطبيعي أن يبدو هكذا.. فأنا وهو استيقظنا لنجد حياتنا تنقلب رأسًا على عقب.

دخلنا لنجد غرفة مطلية بالأسود على عكس بهجة المنزل، وكأننا دخلنا روحه وليس مكتبه، كأنها رُكنه



الخاص الذي يستطيع فيه وحده أن يكون نفسه بحُرية دون الإجبار على أن يخفي ألمه، وندوب روحه والخيبات التي تجعله ينزف سوادًا وليس فقط دمًا.. تبدو عشوائية مثل لحيته المُهملة والكثير من الورق الملقى في كل مكان وكأنها تمثل الأسئلة التي تجول بخاطره.. لماذا هو؟! لماذا هي؟!

لأقول بصوتٍ مسموع:

-كم من الظلم أن نُحاسب على ما لم نرتكبه! أعني لم يختر أي منا أن يكون شبيهًا لآيديا أو إيروس.. لم يختر أي منا تفاصيل ملامحه وحياته، لم يختر أي منا أهله ولا قدره، لطالما ظننت أننا مُخيرون ولكني الآن أؤمن أننا مُسيرون.. رُبما هُناك عدلٍ بطريقةٍ ما بأن نُحاسب على ما نختاره بإرادتنا الحُرة التي اختارها لنا الله فنصبح بطريقةٍ أو بأخرى في المنتصف بين التخيير والتسيير ولكن أليس من الظُّلم أن نُحاسب على ما لم نفعله من الأساس؟!

ليجيب عم مُحب وكأنه مر من هذا الطريق من قبل:

-ولكن هذه بداية الخلق.. ما الغريب في ذلك؟.. ألسنا هنا جميعًا ثمنًا لخطيئة آدم؟

لأصمت أنا ويمان الذي قرر أن يتأمل كُل شيء في صمت لسببٍ لم أفهمه، ولكنني احترمت رغبته في



السكوت.. أحيانًا من شدة صخب ما بداخلنا تنعدم لدينا القدرة على التفاعل مع العالم الخارجي وكأننا أصبحنا أسرى الألم، أعلم من نجا من أسر الحُب ومن نجا من أسر الحرب، ولكن ليس هُناك من نجا من أسر الألم وخرج كما كان أبدًا.

وجدت صورة فوتوغرافية قديمة لامرأة رائعة الجمال، سمراء وشعرها غجري تبدو عيناها وكأنهما البدر في تمام اكتماله.. تقف ويدها على بطنها والأخرى على ظهرها وتضحك، كانت تبدو مثل الحوريات، لم أستطع تمييز هل هي حامل أم لا، ولكنني متيقنة أنها زوجته لأبتسم وأقول: جميلة، رائعة الجمال.

لتلمع عينا عم مُحب ويقترب وينظر لها مطولًا ثم يقول: قمر، اسمها قمر.. لطالما سمعت أن لكُل منا نصيبًا من اسمه، ولكن عندما رأيتها تيقنتُ من ذلك.. سرقت قلبي منذ لقائنا الأول، وسرقت روحي رويدًا رويدًا حتى أصبح حقًّا أنا أيضًا لدي نصيب من اسمي.. أصبحت مُحبها وحبيبها، نعمنا بأعوام مديدة من السعادة، كان جميع من ببلدتنا يتحدث عن مُحب وقمر، وأطلقوا عليَّ مُحب القمر.. كُنا نتأمل القمر دائمًا معًا، وكُنت أكتب لها قصيدة كُل شهر عند اكتماله، كانت تنتظر طوال الشهر يوم



اكتماله حتى تجلس مثل الطفلة تنتظر قصيدتها.. هل تعلمين أنني مازلت أكتب لها قصيدة كُل شهر؟ ولكنها لم تعد هُنا لتقرأها، لم تعد تدمع عيناها عشقًا حين تسمعها.. لم تعد تجلس عند النيل تتأمله ليلًا وتنتظر لانعكاسه على المياه.. لم تعد تخبرني الكثير من التحليلات الفيزيائية التي تخترعها هي.. كانت تنافس القمر في جماله، وتنافس الأرض في جاذبيتها وفيزيائها.. كانت بفطرة تصنع أفكارها عن كُل شيء، وكُنت أستمع لها وكأني أستمع لنيوتن، وأصدق كُل ما تقوله رغم علمي بالحقيقة.. يسقط كُل العلماء والحقائق العلمية أمام سحرها والإيمان الذي تتحدث به، أذهب لقبرها كُل شهر عند اكتمال القمر وأقرأ لها قصيدتها ولكن لم أعد أعلم هل تسمعها أم لا.. أما زالت تُحبني؟ هل هي هُناك من الأساس؟ هل الروح تبقى مع الجسد أم تتحرر منه؟ وإذا تحررت هل تكون في عالم البرزخ؟ هل تزور جسدها من حين لآخر لترى ما تبقى منه؟ هل تألمت كثيرًا؟

ليكمل: أنا خائف من نسيان ملامحها وتفاصيل وجهها؛ لذلك دائمًا ما أتأمل تلك الصورة لساعاتٍ دون توقف وكأنني أحفر عقلي بتفاصيل ملامحها.. أظن هذا التعبير المناسب للألم الذي أشعر به عندما أتأمل صورتها



بدلًا عنها، ماتت بعدما علمت أننا سنرزق بطفلٍ، لم تمُت بل قُتلت.. آيديا لم تقتل فقط حبيبتي بل ابني أيضًا!

وبدأ يبكي في وقار، تسيل دموعه فوق خده في هدوء وكأنها تعرف مجراها جيدًا، وكأنها ليست المرة الأولى.. أظن أنه لو دققنا النظر لوجدت مجرًى للدمع فوق خده محفورًا من الحُزن، وحاولت أن أغير حديثنا عنها رغم أنني أعلم أنه بالتأكيد يحب أن يتحدث عنها وربما ملَّ من حوله من كثرة حديثه عنها.. أتوقع أنه قد توقف الناس عن محادثته لكثرة ما يتحدث عن ذكرياتهما معًا، ولكن أليس من الظلم حين يموت أحدهم أن نُحرم حتى من الحديث عنه؟ ألا يكفي أن تلك الذكريات لن تتغير ولن تتكرر وأن كُل ما في جعبتنا بعض الذكريات المُهلهلة المُمزقة التي نذكر أنفسنا بها..

لأقول بحماس وأنا أحاول أن أغير الحديث عن فقيدته وكأنه إنجاز ما: لقبتني أمي بروى لأنها رأت رؤيا تخصني..

ثم تجحظ عينا عم مُحب وهو يسألني: أي رؤيا أخبريني؟!

ليقطع يمّان صمته أخيرًا ويقول بنبرة تجعل دقات قلبي تتسارع، لطالما علمت أننا عندما نُحب أحدًا نريد أن



نحتضنه، أن نخبئه بداخلنا، ولكنني أبدًا لم أعلم أنه يمكنك أن تشعر بأنك تُريد أن تحتضن أحباله الصوتية، نبرة صوته ورنة ضحكته.. أن تستنشق رائحته وكأنها كُل ما تعرفه من روائح لأبتسم رغمًا عني وأنظر له لأجده بتوتر يقول:

-عم مُحب، ليه بتحاول تفك شفرات الوشم بعد ما فقدتها، هتفرق ف إيه؟

ويقترب منه كأنه يُريد أن يتشرب كُل حرف سيقوله، كُل فكرة ستعبر من ذهنه لفمه ليقول:

-عارف إنه غريب بس العشق بيخليك عندك أمل دايمًا، بيخليك دايمًا شايف إن في حل ولو كُل العالم قالولك خلاص مفيش.

ليصمت يمَّان ويقترب مني، يقترب أكثر حتى تمتلئ رئتاي برائحته.. ينظر في عينيَّ بعمق وهو يقول: لا تتفوهي بشيءٍ أمامه، أنا لا أثق به.

لأتعجب من موقفه، كيف لا يثق به؟! الرجل أدخلنا منزله ويخبرنا عن قمره ويساعدنا في فك شفرات الوشم!

ليقترب أكثر ويهمس:

-إنه رجل عاشق، سيفعل كُل ما يجب أن يفعله ليستردها.. ألا ترين أنه لم يفقد الأمل بعد؟ لا أعلم لماذا



يساعدنا، ولكنني متيقن أن له غرضًا ما في نفس يعقوب.. ثقِي بي فأنا مثله، سأفعل أي شيء لأنقذك.

شيء ما بداخلي يرفض تصديق كلام يمَّان ولكن جزءًا ما يصدقه تمامًا، فالرجل مهووس وليس مُجرد عاشق، وهو يتحدث تمامًا كما تتحدث آيديا، إنها ستفعل أي شيء لتسترد إيروس، والدليل على ذلك أنه لم يمت؛ ولذلك فإن قال «احذروا من مكرها» فيجب أن نحذر من مكره أيضًا!

يمَّان

كُلما تحدث عم مُحب عن قمر تيقنت أنه مثيل آيديا؛ ولذلك قررت معاملته معاملة النار، ألا أقترب منه كثيرًا حد الاحتراق، ولا أبتعد كثيرًا حد التجمد.. ولو كُنت أنا آيديا فأنا هي قبل فقدانها لإيروس، فمازال بداخلي بعض الشفقة والرحمة، أما هو فالنسخة المتألمة مني.. فيجب أن أستفيد بذكائه الحاد وما توصل إليه دون أن أجعله يشعر بأننا متقدمان عليه أبدًا!

حين تحدثت رؤى عن الرؤيا وجدت بعينيه نظرة



مُخيفة وكأنه يحاول جمع كُل المعلومات اللازمة لتحقيق شيء ما، وكأن لديه مصلحة ما من وراء مساعدته لنا ويجب أن أكتشفها، وحتى أكتشفها يجب ألا أسمح له باستغلالنا أبدًا لتحقيق رغباته الدفينة!

كانت رؤى تبدو غاضبة مني لسوء ظني، فالرجل يحاول مساعدتنا ولكن هُنالك شيئًا غامضًا ومريبًا عنه ويبدو أنني نجحت في إقناعها على الأقل ألا تخبره كُل شيء.. قطع تفكيري عن عم مُحب وغموضه الرؤيا.. ما تلك الرؤيا؟ هل لآيديا القدرة على معرفة المستقبل لدرجة أن تجعل أمًّا ترى رؤيا ما لجنينها الذي بالمصادفة سيصبح ضحية سحرها؟

ذهبت لأبحث عن رؤى بعدما جلست مع أهل بيت عم مُحب قليلًا، وجدتها مجددًا أمام النيل.. كانت تتأمله في هدوء وصمت وكأنها تمثال يحقد على كُل ما هو مُتحرك، كان نصف وجهها مظلمًا والآخر مُنيرًا.. كانت كالقمر تمامًا معتمة ومُنيرة في الوقت ذاته، كانت شاحبة الوجه وكأنها فقدت حيويتها أو تستعد لموت لن ينالها، سأفعل المُستحيل حتى أتأكد من ذلك.. جلستُ بجوارها وأنا أفكر متى وقعت في عشق تلك الفتاة لتلك الدرجة، للدرجة التي تجعلني أفكر كيف أموت بدلًا عنها!، لو قال لي أحدهم منذ



شهور قليلة فقط إنني سأقع في العشق لتلك الدرجة بتلك السرعة لقلت إنه حتمًا فقد عقله أو إنه لا يعرفني على الإطلاق، ولكن لا أعلم هل كما توقعت آيديا أن رؤى ستكون ضحيتها وجعلت أمها ترى الرؤيا فربما علمت أيضًا أنني أنا الرجل الذي ستقع في عشقه رؤى ولذلك أنا الموشوم.. رُبما هي فقط تستطيع اختيار الفتاة، والرجل ما هو إلا قدر الفتاة ويكون مُجرد أثر جانبي لـ اللعنة وكأنه من محاولات الأرض العبث معها.. إنه ربما لا يشبه حبيبها إيروس فتنتظر إلى عصرٍ آخر.. هذا معناه أن ما قاله عم مُحب خطأ.. إنها لا تأخذ من يشبهها في الروح، هي تختارهم منذ كانوا أرواحًا في عالم البرزخ، وتتنبأ بهم، وتنتظرهم طوال حياتهم حتى يقعوا في شبيه إيروس حتى توشمهم.. هذا معناه أن رؤى هي آيديا وليست إيروس.. إذًا هي لن تموت!

ولكن إن كان تحليلي صحيحًا، فرؤى حقًّا شبيهة لآيديا ولن تجلس مستكينة أمام النيل إن علمت أنني أنا من سيموت.. ستحاول جاهدة أن تفعل أي شيء حتى أعيش؛ ولذلك يجب ألا تعلم ذلك.. مؤكد يجب ألا تعلم ويجب أن أتيقن من صحة توقعي.. ولكن كيف؟!

كم هو غريب الشعور بأنك تعد أيامك للموت أو أن



تنتظر حدوث معجزةٍ ما رُبما تنقذك من هلاك حتمي! تجلس هُنا وتتأمل كُل شيء للمرة الأخيرة وكأنك تراه مميزًا، لأول مرة تراه حقًّا كما يبدو.. تتأمله هو فقط دون أن تفكر بالمستقبل الغامض لحقيقة أنه ربما لن تجد الوقت الكافي لتعيشه، تتأمل السماء كما هي سوداء وتتقبلها دون أن تنتظر الصباح؛ لأنك رُبما لن ترى الليل مجددًا فيجب أن تحفظ تفاصيله عن ظهر قلب، ورُبما لن ترى الصباح أبدًا، رُبما ذلك الغروب العابر الذي لم تُعره أي اهتمام هو آخر غروب للشمس قبل أن يغرب عُمرك، أن تشعر بكُل دقيقة تمُر أنها من عُمرك وليس مُجرد وقت عابر تنتظره أن يمر حتى تنهي عملك غدًا أو تقابل صديقًا وعدته منذ شهور بمقابلته ولكن لم يحالفكما الحظ ولا الوقت، والآن لن يحالفكم العُمر.. شعرت وكأنني لأول مرة أرى العالم جميلًا، أراه كان يستحق الكثير مني ولكن لم أعطه ما يستحقه وانتقم مني بأن جعلني أستطيع أن أعلم موعد رحيلي عنه.. لطالما كُنت أفكر حين كُنت طفلًا لماذا منع عنا الله فرصة أن نعلم وقت موتنا حين يدق الموت الباب طالبًا روح فُلان بن فُلان؟! لطالما قال لي أبي إن هذا كان قاسيًا للغاية ولم أصدقه، كان فضولي أكبر من تصوري لحقيقة وصدمة وقع الأمر على صاحبه وأهل بيته.. حقًّا إنها رحمة من إله العالمين، ولكنها



لم تطلني، لم أستطع نوالها..

قطع أفكاري رأس رؤى الذي وجد مكانه على كتفي، رُبما هي الآن تفكر في كُل شيء مثلي.. رُبما هي الآن أيضًا تتأمل السماء والقمر والنيل والوقت والحياة التي -تظن- أنها ستفارقها، وضعت رأسي فوق رأسها في قلة حيلة وضعف.. كيف تحملت ذلك طيلة الأيام السابقة، كيف استطاعت مجابهته بالسخرية.. رُبما عقلها الرحيم لا يستطيع تصور قسوة العالم بعد، كم أنا خائف على روحها الرقيقة كفستان أبيض مليء بالثقوب من كثرة الخيبات والندوب التي أصابته ولكنها حاولت النجاة منها على الرغم من كُل ذلك حتى خلقت من بقايا روحها فستان دانتيل أبيض رقيقًا أن يتهلهل ويصبح لونه أسود ويفقد بريقه وروعته رغم أنه متقطع، ولكنها كانت تُجيد إخفاء ندوبها، قفزت من فمي حروف لم أستطع منعها وكأنها وصيتي:

-أحبيني إلى الأبد.

لأستشعر ابتسامة هربت من صمتها وهي تقول:

-وحتى ينتهي الأبد.. إلى الـ (ما لانهاية).

لأسألها وكأنني أرغب أن تنقذني من أفكاري وهي التي غارقة في وهم تظنه الحقيقة:



-كيف شعوركِ وأنتِ تظنين أنكِ رُبما تفارقين العالم بعد أيام معدودة؟

رفعت رأسها وكأنها ستلقي علي أكثر القصائد وجعًا وقالت:

-الموت هو حياة جديدة؛ ولذلك لستُ حزينة أنني سأموت؛ بل إنني سأفارق هذا العالم وسأفارقك.. أما عن خوفي من الموت فهو يشبه خوفي من ترك رحم أمي وأنا أركل بطنها لأقابل هذا العالم.. لا أشعر به، إنه سيحدث ولكنه مثل الولادة.. أنت لا تتذكر شعورك عند الولادة، وموقنة أنني أيضًا لن أتذكر شعوري عند الموت.. مهما تألمت سيبقى ذكرى لجسدي وليس لروحي؛ ولذلك فقط أفكر أنني أريد أن أحتضن أبي.. أريد أن أودعه، أريد أن ألمس لحيته للمرة الأخيرة، أنا لستُ حزينة لأنني سأموت؛ بل لأنني سأتركه، كم هو حزين أن تترك حياتك تتسرسب من بين يديك طمعًا في أن تربي فتاة فقدت أمها ثم تفقدها هي أيضًا! لستُ حزينة لأنني لن أستيقظ مجددًا؛ بل حزينة لأن أبي سيتألم كثيرًا.. أستطيع تخيله يبكي فوق قبري لساعاتٍ، أستطيع تخيله يقرأ لي قرآنًا لساعاتٍ أملًا أن يغفر لي الله أخطائي، أستطيع تخيله حتى وهو غاضب من الموت والقدر الذي سيأخذ فتاته الوحيدة.. أستطيع تخيله



وحيدًا، كان يريد أن يزوجني ليلعب مع أحفاده، وكان يغضب مني للغاية في كُل مرة أقول له إنني لن أتزوج، لو يعلم أنه من رحمة الله أنني لم أتزوج لأترك خلفي طفلًا صغيرًا كما فعلت أمي يعيش حياته بأكملها يتساءل لماذا كل هؤلاء الأطفال لديهم أم وهو لا.. يتساءل دائمًا إن كان الله يحبه!!

ثم أجهشت بكاءً يمزق قلبي، ولم أستطع إلا أن أبكي معها وأنا أتذكر أمي.

مرت ليلتنا كُل منا ينعى نفسه بطريقته الخاصة، ينعى أعوامه التي لن ينعم بها، وجسده الذي سيفارقه، وأهله الذين ليس لديه فرصة أخيرة لتوديعهم.. جلس كُل منا في هدوء في أعاصير أفكاره الداخلية وفي مخاوفه الوهمية والحقيقية حتى الشروق، وكأننا لا نريد أن نضيع وقتًا نائمين، لدينا الأبد لننامه.. قفزت لعقلي الرؤيا، فسألت رؤى عن رؤيا أمها لتقول:

قالت لي أمي إن سبب تسميتي برؤى هو أنها رأت رؤيا حين كُنت جنينًا في رحمها أنني أحمل مفتاحًا ما، تعجبت لأنها لم تعرف ماهية المفتاح.. لطالما قالت لي إنه رُبما مفتاح لقلوب الناس لأن كُل من يراني يُحبني.

لأتوقف قليلًا وأنا أقول: إذًا الحل هو المفتاح.. فمثلما



عبثت الأرض بلعنة آيديا كان يجب أن تعطينا حل الأحجية بطريقةٍ ما، ولكن كُل ما علينا فعله هو اكتشافه، وكُل ما علينا فعله الآن هو اكتشاف أي مفتاح هو ذلك، وما دوره في حل اللعنة، ولكن حتى ذلك الوقت يجب ألا يعرف أي أحد عن هذا المفتاح أبدًا.

أومأت برأسها ولمع بعينيها بريق الأمل وكأنها حقًّا لا تريد الموت؛ وهذا بالطبع حقيقي.. لا يُريد أحد الموت، ليس لشيء سوى لأنه لم يعد منه أحد ليخبرنا عن ماهيته، فعذرًا أيها الموت نحن لا نكرهك، أعلم أنك تعاني الكثير من عدم التقبل واللوم على شيء ليس بإرادتك ولا بمقدرتك إيقافه.. إنها فقط ماهيتك، أعلم أنه بشع أن يكرهك الخلق لما أنت عليه ولكن المُشكلة الحقيقية تكمن في أننا فقط لا نعلم كيف نتواصل مع من فقدناهم وأخذتهم أنت لعالمك.. نحن لا نكرهك، نحن نكره غموضك؛ أنه ليس لدينا أي معلومات أو خبرات عنك بعد ملايين الأعوام على الأرض والتعامل مع الموت كُل ثانية، فكرة أننا لم نستطع مجابهة قوتك وغموضك تجرح كبرياءنا وغرورنا كبشر لا حول لنا ولا قوة أمامك.. أعتذر لك نيابة عن كُل البشر، فأحيانًا أنت تكون راحةً من كُل شر ورحمةً، وأحيانًا قدرًا لا بد منه.



قررنا أننا سنعلم كُل ما اكتشفه عم مُحب، وسنحاول معرفة سبب غموضه، ولكن قطع جلوسنا منير وجميلة.. وكانا هما آخر وأكثر من كنا نحتاج وجودهم الآن، أعلم أنهما لن يتوقفا عن التساؤل حتى يفهما كُل شيء؛ لذلك قررت نيابة عن رؤى أن أشرح لهما كل شيء.. أحيانًا رغم صعوبة الحقيقة ولكنها أرحم من الكذب، ألم الحقيقة أهون من اكتشافهما لكذبنا عندما ينتهي الأمر، ولكن لا أعلم متى سأقول لهما كل شيء لأنهما يبدوان سعيدين للغاية، ويبدو منير كأنه أخيرًا وقع بالعشق.. علمتُ ذلك منذ أول يوم رأيتهما فيه معًا ولكن الآن يبدو كُل شيء واضحًا.

* * *

رؤى

اليوم الأول:

قررت أن أكتب ما يخطر على بالي لآخر أيامي على هذه الأرض، لا أعلم لماذا، ولكنني كُنت أتجول بعدما علمت أن معرفة حل الشفرة التي حاول عم مُحب فكها لسنواتٍ عديدة فقط في سبعة أيام شيء مستحيل؛ ولذلك



قررت أن أترك هذه المذكرات للموشومين من بعدي أنا ويمان رُبما.. منذ فترة علمت أنني أنا وإيروس متصلان بطريقةٍ أو أخرى، وعندما قابلت عم مُحب علمتُ أنني نظيرته، وبذلك سيقع اختيار الأرض علي لأموت مثله حتى تمنع آيديا من الرجوع مرة أخرى.. أشعر بالغضب والألم، أشعر بأن غريزة البقاء بداخلي تنازع.. ترفض الموت رغم تصالحي النفسي معه.. ألن نموت جميعنا في النهاية؟ إذًا لا بأس.. رُبما ما يؤلمني فقط هو أن كُل شيء في حياتي لم يكن أبدًا على ما يرام، لطالما كان كُل شيء عكس ما تمنيت.. أجبرت على عيش حياتي طفلة دون أم، حُرمت من ذكر حروف «أمي» رُبما لأن آيديا علمت أن طفلًا دون أم هو هدف أسهل.. ثم حُرمت من الوقوع في العشق، ورُبما أيضًا لآيديا دور في ذلك، رُبما لها يد في أنني لم أقع أبدًا في عشق أي رجل، ليس لأنهم سيئون؛ فقط لأنهم لم يشبهوها!

أشعر بالغضب حيال فكرة أنه يوجد من يتحكم بحياتك وكأنك دُمية يُحركك ويتحكم بتصرفاتك.. رُبما بالنهاية اكتشفت أننا مُخيرين ولسنا مُسيرين.. لأن الله يجعلنا نختار ما نريد ونعاني من نتائج اختياراتنا، ولكنه أبدًا لا يجبرنا على اختيار ما لا نريده، هذا مُجرد اختبار.. هي



ليس لديها تلك القدرة المُطلقة.. وحده الله يستطيع ولكنه لسببٍ ما رُبما لاختباري، أو أنه مُجرد ابتلاء، ولكنني أعلم أن كُل شيء سيكون على ما يُرام.

* * *

اليوم الثاني:

لا أشعر بأي شيء حينًا والحين الآخر أشعر بكُل شيء دُفعة واحدة.. يصيبني كُل شيء، يمزقني، يقتلني، يفتتني، يهشمني.. يجعلني أفقد القدرة على التنفس وكأن رئتيَّ لا تستطيعان تجرع كل تلك الخيبات.. هُما فقط مخلوقتان لاستنشاق الأوكسجين ليس إلا، قلبي يؤلمني وكأن ذلك الألم أثقل من أن يضخه دون أن يئن.. عقلي يعاقبني بطريقته المُعتادة، كُلما أرهقته أصابني الصداع وكأنه يعاقبني على إدخاله فيما لا يعنيه.. فالألم ليس من اختصاصاته، أو رُبما هي الذاكرة، رُبما لأن كُل شيء يُعاد أمامي.. العديد من الصور والذكريات والأشخاص والحوارات.. فتحترق، المُضحك أنني وأنا أبحث عن طريقة لنجاتي في الواقع لا أريد أن أنجو.. أريد أن أتبخر، أن أرحل.. أنا لستُ بخير هُنا، ولن أكون أبدًا، رُبما بالعالم الآخر سأكون!

* * *



اليوم الثالث: أنا أنسحب..

* * *

اليوم الرابع:

المفتاح هو الحل، المفتاح هو حل اللُّغز.. الأيام تمُر والوقت يتبخر والعالم يزداد جمالًا وأنا أزداد خوفًا واشتياقًا وعشقًا.. بانتظار هلاكِي، فقط أتمنى أن يكون شاعري بالدرجة التي تستحق ذلك العناء.. مالك هُنا، رُبما أخبرته جميلة أن يودعني.. ولكن كم سعدت بمقدمه! ارتميت بين ضلوع صديقي الغائب وبكيت.. بكيت وبكى، أظنه بكى فقد حبيبته التي لم تتح له الفرصة لدخول ضلوعها إلا لتخبره أنها تنفصل عنه وأنها ستموت.. جلسنا معًا وتحدثنا كما لم نتحدث من قبل عن كُل شيء، لأول مرة أشعر بأنني استرددت صديقي منذ فترة طويلة، تجمعنا ثلاثتنا معًا مُجددًا مثلما كُنا أطفالًا، اجتمعنا ولكن هذه المرة سنجتمع لنفترق.. كُل شيء يعبث بسلامة صحتي العقلية، هل تُريد آيديا أن تفقدني عقلي أم أن إيروس كان شديد الحماقة؟!

مازلنا أنا ويمان نبحث عن الحقيقة، لكن هُنالك شيئًا غريبًا به.. رُبما فقط يفقد إيمانه أو الأمل، لا أعلم ولكنه ليس بخير.



* * *

اليوم الخامس:

كم أود الانسحاب! فقط لو أن هُناك زر «انتهت اللعبة».. لو أن هُناك طريقة ما للهروب من هُنا، أشعر وكأني بلعبةٍ ما ويجب أن أُهزم لأستطيع الخروج لحياتي السابقة ما قبل الوشم.. أهي تكنولوجيا جديدة؟ الوشم يتحكم بجهازك العصبي بطريقةٍ ما.. يأخذ عقلك بداخل لعبة ثلاثية الأبعاد، يعبث بذكرياتك وبالواقع وبالأماكن التي تعرفها وبأصدقائك ويجعل أعداءك أكثر خطورة بمعدل ثلاثة أضعاف.. ربما.. رُبما هي لعبة للناس المقبلين على الانتحار ليعلموا أنهم في الحقيقة لا يريدون الموت، بل فقط يريدون أن يعيشوا كما يتمنون.. ولكن إن كانت لعبة فلماذا ليس لدي حُرية اختيار الانسحاب؟ وإن كان كابوسًا فلماذا لا أستيقظ؟ وإن كان حقيقة فلماذا أنا؟

سألت عم مُحب: لماذا نحن؟ وجدته شرد قليلًا رُبما سأل نفسه كثيرًا ذات السؤال ولكنه أبدًا لم يصل لإجابة!

سألته: هل هذا حقيقة أم كابوس؟

أخبرني بمنتهى الحكمة: هذا واقع وليس حقيقة.. هُناك فرق بينهما، الحقيقة هي الشيء الحق الذي لا خلاف عليه؛ مثل وجود الله والقدر والموت، أما الواقع فهو ما



يحدث نتيجة كوننا بالأرض ولسنا بالسماء، الواقع هو ما يحدث نتيجة سوء البشر وليس الله.. الله بريء من كُل شرورنا.

اليوم السادس:

هُناك بضع ساعات فاصلة عن موتي.. تتحدث كُل القنوات عن الكسوف الحلقي غدًا، كُل علماء الفلك متحمسون للغاية لتلك الظاهرة الكونية العظيمة، ولسخرية القدر سينتهي الساعة الرابعة وثلاث دقائق، وسيدوم لمدة ٥ ساعات ودقيقتين.. هذه الأرقام التي إذا جمعتها تعطي رقم «سبعة».. سبعة مجددًا.. أصبح هذا الرقم يخيفني، فقد فقدت أمي في السابعة من عُمري، وعلى وشك خسارة حياتي لسبعة أيام فقط، وكُل المعطيات نتيجتها الرقم ذاته.

مازال يمَّان يبحث عن حل وأبحث معه، ولكنني أعلم أننا لن نستطيع فك تلك الطلاسم، وإن كانت الأرض تعبث مع آيديا، وآيديا تعبث مع الأرض فنحن من يتم العبث بهم في نهاية المطاف.. أنا من سأفقد حياتي إزاء كل ذلك العبث..

ما زال يمَّان يبحث، وما زالت آيديا تعبث، وما زالت الأرض تقاوم، وما زلت أتألم.

* * *



اليوم السابع: ....

آيديا

منذ أخذت تلك القوى من الأرض ومُنذ لمست ندوب إيروس وأنا أشعر بأنه رُبما هُناك شيء ما يحدث.. وكأن أمي تحاول إخباري شيئًا ما ولكنني لم أفهمه، على الأقل ليس بعد!

فتحت كتاب السحر وبقيت أتصفحه وأترجم كُل لغاته الغير مفهومة من ورقة الحروف التي علمتني إياها أمي.. بقيت أجرب كل التعاويذ البسيطة التي وجدتها حتى أختبر قوتي، ولكنني شعرت بإعياء شديد حتى إنني فقدت وعيي..

رأيتُ أمي.

كانت ترتدي فستانًا أسود يبرز جمالها وعينيها الزرقاوين الجميلتين.. تجمدت لثوانٍ أمام جمالها.. تذكرت طفولتي معها، ركضت نحوها لكي أضمها ولكنني حين دخلت ضلوعها لم أشعر بذلك الأمان الذي لطالما شعرت به.. لمست يديها.. كانتا باردتين على عكس الحرارة التي



حولها وكأنها بين النار ولكنها لا تحترق.. أظنه غضبًا أو ربما ألمًا.. أظن أنه حتى عندما نموت لا نفقد شعورنا، آخر شعور شعرت به كان الألم والخيانة، رُبما يبقيان على هذه الحالة أبد الدهر.. تذكرت إيروس وقد قتله داريوس مثلما قتل أبي أمي، ولكن الفارق أن داريوس كان عدوه، أم رُبما هو ينعم بالسلام لأنه يظن أنه أنقذني أنا!

اقتربت مني وهي تقول:

-بإمكانك إصلاح كُل شيء، أنتِ ساحرة قوية.. اذهبي إلى زيوس.. تضرعي له.. وقدمي له القرابين عساه يمد روحك من نفحات قوته.. السحر قوة ولكن لا تجعليها تهيمن عليكِ.

قبل أن أتفوه بشيء.. استيقظت فوجدت الكتاب فوق صدري مفتوحًا على تعويذةٍ، علمتُ أنها هي التعويذة المعنية.. بقيت أفك شفراتها حتى علمت أنها تعني «الاستحضار» وأنه مادام لدي جسد الفقيد أستطيع استحضار روحه بطريقةٍ ما، فدائمًا الروح مترابطة بالجسد حتى يُدفن، وكأن التراب هو الطريقة التي تُمنع بها الروح من التواصل مع الجسد..إذًا هذا ما تعنيه، هل أستطيع استحضار روح إيروس؟!



تيقنت أنها التعويذة التي ستنقذ إيروس.. فقط إن علمتُ كيف أنفذها.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي وأنا أقرأ حروف التعويذة وكأن هُناك شيئًا يحدث بي، وكأن شيئًا بجسدي يحترق.. عقلي أستطيع الشعور بخلاياه تشيخ أو رُبما تموت.. وكأن هُناك بعض التعاويذ يجب أن تأخذ منك قبل أن تعطيك، رُبما تأخذك أنت ذاتك.. لو تعلم يا إيروس كم أنا خائفة من أن تأخذ مني رغبتي الهائلة بك كمقابل لعودتك! ولكن أظن أنه لا بأس حتى إن فعلت.. يكفي أن تكون على قيد الحياة مجددًا، يكفي أن تكون هُنا وأستطيع أن أراك وألمسك.

لم أنم لأسابيع، لم أغفُ.. بقيت مستيقظة أتدرب على كُل التعاويذ وأفك شفراتها حتى أكون بالقوة الكافية، في البداية كُنت أبكي وكأنني أفقد جزءًا مني كُلما تمكن مني السحر وازددتُ قوة.. كُنت أشعر بالألم يعتصر قلبي، بالطبع لم أكن أعلم ماذا يفعل السحر بي، لم أعلم ذلك الجانب المُظلم الذي يتحكم بي، الذي يقتل كُل ما هو رحيم بي.. بدأت أعلم لماذا جعلني أبي ألبس تلك القلادة، ولكنه فات الوقت لأستسلم.. أحارب حتى أسترد إيروس، لن أيأس.. أعلم أنه حين يضمني سيصلح ما أفسده العالم



بروحي، أعلم.

ذهبت إلى زيوس..

تضرعت له، بكيت قوته وعظمته، وقدمتُ له القرابين، وهُناك قابلت «أريس» وكأنه استجابة زيوس لي -هو ساحر قوي للغاية- أظنه وقع بعشقي، ولسذاجته حاول أن يساعدني على استحضار روح لم يعلم أنها لحبيبي، ولكنه بعد عدة محاولات قال لي إن روحه مغدور بها، روحه متألمة.. إنها ترفض أن تأتي في سلام.. بكيت ونحن في جلسة الاستحضار:

-إيروس، حبيبي.. أنا هُنا، لن أتركك.. سأفعل المستحيل حتى نبقى معًا مجددًا، لا تخف مني، أنا آيديا.. أرجوك!

و لكن لم تكن هُناك أي استجابة!

ولكنني لم أيأس، لحسن حظي كان أبي مشغولًا بالحملات التي تُشن عليه والتي يشنها هو.. كل منا كان مشغولًا في حربه.. بقيت لأشهر في غرفتي فقط أمام كتب السحر أو مع أريس يعلمني المزيد من التعاويذ.. ولكنني تفوقت عليه، أصبحت أحاول خلق تعويذة خاصة بي أنا.. تعويذة أشبه باللعنة والغضب والألم التي أشعر بها، ومن كُل تعويذة أخذت ما يناسبني.. لكل سحر ثغرة؛ لذلك



حاولت جمع العديد من التعاويذ التي حين تجتمع تعالج تلك الثغرات.. نحتُّ من ندوب إيروس شيئًا يشبه الوشم، ثم أحرقت جثته التي تعفنت رغم كل محاولاتي المستميتة للحفاظ عليها.. أحرقتها وأخذت رمادها لاستخدامه في التعويذة، أصبحت مهووسة بتنفيذ تلك التعويذة.. كانت تمر أيام أنسى أن آكل، مرت أسابيع منذ آخر مرة خرجت من الغرفة من الأساس، شعرت بسحابةٍ سوداء تخيم فوق روحي.. فقدت الإحساس بالجمال الذي طالما وجدته في كُل شيء، فقدت رقة روحي، أصبحتُ لا أتأثر بعدد الموتى من جنودنا، ولا بالأطفال الذين سيترعرعون دون آباء.. لم يعد هُناك شيء بالأهمية الكافية ليجذب انتباهي أكثر من تلك التعويذة حتى وصلت لآخر ثغرة فيها.

قال لي «أريس» يومًا إن لكُل سحر مُقابلًا، ومُقابل تلك التعويذة سيكون روحي.. قال لي إن تلك التعويذة قوية للغاية وستودي بحياتي.. آخر ساحر حاول فعل ما هو أضعف منها فقد حياته.. ولكنني مؤمنة بأنني قوية، على الأقل حتى وإن مُت سأعود مجددًا.. أعلم ذلك.

السحر مرتبط -بنسبة كبيرة للغاية- بالطبيعة؛ بالبحر والأرض والرياح والنار؛ ولذلك كان يجب أن تكون تعويذتي تضم كُل تلك العناصر حتى أستمد قوتي منها،



وبالفعل استمددت منها القوة.. يجب أن يكون سحر بهذه القوة في ظاهرة كونية قوية.. اليوم قال لي علماء الفلك اليونانيون إن الأرض والقمر والشمس ستكون على نفس الخط تمامًا، سيحجب القمرُ الشمسَ لساعاتٍ عديدة تكفي تمامًا لإتمام تعويذتي الانتحارية التي لا يعلم عنها أحد.

سنأتي في زمان آخر في أجساد أشخاص آخرين لا يشبهون ملامحنا رُبما ولا أجسادنا، ولكنهم سيكونون نحن، وسيبقى مفعول تلك التعويذة حتى يكتشف أحد الموشومين حلها، والذي هو ضرب من المستحيل؛ إذ إنني عقدت اتفاقًا ضمنيًا مع الأرض، ولكنني عالجتُ كُل الثغرات.

إنه الآن.. بدأ الظلام يخيم على أثينا الرائعة، بدأ القمر يظهر ويقترب من قرص الشمس.. جلست على الأرض.. لمستها مثلما فعلت عندما زرت قبر أمي، جلستُ على ركبتيَّ.. أمامي الكثير من الورق وفوقه صخور حتى لا يطير إذا هبت رياح، جلستُ وحدي.. عندما علم أريس ما سأفعله ظن أنني فقدت عقلي، ورفض مساعدتي على قتل نفسي..

بدأ القمر يقترب من الشمس، وبدأت أهمهم بتعويذتي، بدأت الأرض تحاول منعي.. بدأت الأتربة تتطاير حولي



وكأنها أعاصير صغيرة، وكُلما استمررتُ كبرت.. بدأت السماء تمطر وترعد.. بدأ بوسيدون في الامتعاض، وتضاربت أمواجه حتى وصلت لي وأغرقتني، ولكنني لم أتوقف، وأبدًا لن أتوقف..

بقيتُ أقول التعويذة لمدة لا أعلمها ولكنها ليست بقصيرة، وأعتقد ليست بالكافية، حتى بدأت أنزف دمًا من كل خلاياي، نزفت وكأن تلك التعويذة تحتاج لقوّى أكبر مني، نزفتُ حتى خارت قواي.. بكيتُ وأنا أصرخ بالتعويذة بما تبقى من قوتي، والأرض في أقصى حالات ضعفها، وأنا أحتضر، حتى شعرت بأمي تلمس يديَّ.. شعرت بصقيع روحها وهي تهمهم معي دون أن تقرأ وكأنها تعلم جيدًا ما تفعله، همستْ لي خلال احتضاري:

- سأنتقم من أبيكِ بموتك، وسنعود معًا مجددًا في عصر آخر.

لا أعلم لماذا ظننت أنها ستعود معنا، ولم أعلم هل التعويذة بالقوة التي تعيد ساحرتين للأرض، هل ستقبل الأرض بذلك التهديد؟!

و لكني لم أبالِ، سأعود يومًا ما أنا وإيروس..

سنبقى معًا للأبد وحتى ينتهي الأبد.

* * *



يمَّان

لم أنم منذ أيام، ليس هُناك وقت للنوم.. أنا أصارع من أجل الحياة هُنا، تبدو رؤى يائسة ولكي يزداد الأمر سوءًا جاء مالك، جاء ولكنَّ به شيئًا مُتغيرًا هذه المرة.. جاء بهيئة رجل يعلم أنه هُزم وتقبل هزيمته، ولكنني أشعر بأنها أفضل حين رأته، لن أنكر أن هذا جعلني أشعر بالغيرة وكأن شرايين قلبي تغلي بها الدماء وأستطيع شم رائحة الاحتراق بداخلي، ولكن أي شيء سيجعلها أفضل سأقبله.. هي تظن أنها تموت؛ لذلك تودعه، لم تعلم كم أنا بحاجة إليها لتودعني أنا.. لتضمني أنا! لو تعلم كم أنا بحاجة لرائحتها حتى أقاوم شبح موت يطاردني! لو تعلم كم أنا بحاجة لذراعيها لألتقط ما تبقى من أنفاسي بينهما! ولكنني هُنا مع عم مُحب ومنير.

منير يستغل كل ذرة ذكاء بداخل رأسه العبقري ليجد ثغرة.. هو الذي يعالج كل المرضى والحالات مهما كانت مستعصية يقف عاجزًا أمام احتضار صديقه المُفضل.

بالطبع أخبرته!

كم من الصعب أن تحمل خبر موتك وحدك! أن تخبئه



بداخلك كقنبلة موقوتة متوقعًا أن تنفجر بك في أي لحظة، لأول مرة أجد منير يبكي.. للحق شعرت بالفخر أنني سبب في ذوبان ذلك اللوح بطريقةٍ ما، ولكنني أعلم أن الفضل لجميلة بالطبع، هي جعلته يكتشف جانبًا بداخله لم يفقه عن وجوده شيئًا من قبل.

وضعنا أمامنا كُل شفرات الأحجية التي فكها عم محب، وبعقلنا رؤيا أم رؤى «المفتاح».. جلسنا أنا ومنير مع الكثير من القهوة والكثير من الورق والأمل والخوف والترقب وانتظار المعجزة.. تأملنا النيل وبقينا نتأمل كُل المعطيات التي أمامنا أملًا أن نجد المطلوب الوحيد الناقص وكأنها إحدى معادلات الكيمياء التي طالما عشقناها منذ كنا صغارًا، حتى جاء عم مُحب الذي أحببته على الرغم من عدم ثقتي به مثلما أحببت أبو عبده.. هؤلاء الناس لديهم وفاء وإخلاص غير محدود وذلك نفسه ما أحببته وما يقلقني.

ربت على كتفي وهو يجلس ويسألني: «هل هُناك أي جديد؟»..

لأقول: «ليست المعضلة بالجديد، فإنه أبدًا لن يغير شيئًا.. أما القديم -الماضي- فهو ما سيهلكنا»..

ليسأله مُنير: أحيانًا أتعجب كيف يُمكن أن يكون البشر



بذلك السوء!

ليجيب عم مُحب:

-يا مُنير، نحن أولاد القاتل وليس القتيل.

لينظر له في تعجب ثم يكمل:

-ألم يكن لدى سيدنا آدم ولدان «قابيل وهابيل»؟ ألم يغَرْ قابيل من هابيل فقتله؟ أول جريمة سفك دماء على الأرض كانت بين أخوين وبسبب الحُب والغيرة.. نحن أولاده، بداخلنا جزء مظلم دائمًا يحمل خطيئته.. جانب يجعلنا نجد مبررات للشر والقتل؛ ولذلك قالوا: «كل شيء مباح في الحُب والحرب»، يُمكن أن نعتبرها جينات! رُبما..

قال يومًا العظيم «أحمد خالد توفيق»:

«الغريق الذي يتمسك بساقك لا يبتغي إغراقك أو أن ينعم بموته معك.. فقط يحاول ألا يهوي للقاع»..

تلك هي الخدعة، غريزة البقاء بداخلنا تجعلنا على استعداد أن نَقتل في سبيل ألا نُقتل، أن نحارب في سبيل ألا نُهزم..

ثم صمت قليلًا وأكمل:

وأن نموت في سبيل العشق.

حتمًا إنه آيديا، نظر لي وكأنه يعلم أنني أنا إيروس..



مؤكدًا أنه لن يخطئ من يشبهه و يمثل آيديا ومن يشبه إيروس، رجل مثله حكيم لن يخُدع، ولذلك قال لي: «نموت في سبيل العشق»..

لأسأله:

-هل ستخبرها؟

ليقول:

-أنا لن أخبرها ولكنه قدرها أن تعلم.. مثلما علمت آيديا الحقيقة من داريوس قبل أن يموت، ستعلم هي الحقيقة، لا أعلم كيف، ولكنها ستعلم.. لا تستهِن أبدًا بذكائها.

مرت الأيام وكُل دقيقة تمُر نعلم أكثر عن التعويذة وعن تاريخ آيديا وإيروس، ولكنَّ هُنالك شيئًا غامضًا لا أعلم ماهيته ولكنني متيقن أنه ثغرة التعويذة.

آيديا تبدو بائسة ليست شريرة على الإطلاق، تبدو فقط متألمة.. فمثلها مثل عم مُحب، إنه ليس سيئًا ولكنه سيفعل أي شيء حتى يشعر بالسعادة مجددًا.

حتى سألني «منير» سؤالًا وكانت إجابته هي كُل ما أحتاجه لأعلم ثغرة التعويذة!

* * *



رؤى

إيروس عزيزي..

اليوم هو اليوم الذي سنجتمع فيه، أشعر بذلك، سأراك مُجددًا.. رُبما سيكون جسدي وجسدك مُختلفين قليلًا، ولكن لا بأس مادمنا نحن معًا.. كانت ستواجهني بعض العقبات فاقترب يمّان من معرفة حل اللعنة ولكنني قمت بزيارة عم مُحب.. أتتذكره؟! وهو رجل عاشق؛ مما يجعله أكثر غباءً، فصدَّق وعدي أنني سأحضر روح زوجته معي إن تسنت لي الفُرصة.. كم يصبح الشخص غبيًّا إن وقع بالعشق! يضحي بكُل شيء من أجل وهم!

اليوم سنجتمع، سأراك، سنرقص معًا مُجددًا ولكن لن يكون هُناك داريوس ليمسَّك بسوء.. لن أفقدك أبدًا مُجددًا..

استيقظت مذعورة لأجد أمي بجانبي.. اقتربتُ منها وأنا أبكي وأهمس بين نحيبي المتقطع: «هل مُت؟»..

لتبتسم ابتسامتها التي تهوِّن كُل سوء العالم وتقول:

ألم تبكي لأيام وأنت صغيرة لأنكِ تريدين أن تأتي لأمك، ها أنا هُنا؟

لأسألها مجددًا: هل أنا مُت؟



وكأن تلك العبارة هي كُل ما أتذكره من لغة.

لتقول بحُزن: نعم، قد غلبتك آيديا، ولكن روحك وجدت السلام.. أنتِ هُنا معي الآن.

لأبكي بلا توقف ثم تقول أمي:

-لو كان لديكِ الفرصة لتحاربيها من جديد، فماذا ستفعلين؟

-لما سمحتُ لها بأخذ جسدي وأن تعيش بدلًا مني.. إنه عصري أنا ليس هي، هذا ظلم!

لتمرر يديها على شعري وكأنها تزيح كل هم وغم عن روحي ثم تقول:

-إذًا استيقظي وحاربيها.. مازال أمامك اليوم، إنه الأخير ولكنه الأهم.. فكري ماذا لديكِ وليس لديها لتغلبيها به، واعلمي أنه في كُل الأحوال لن تكوني أنتِ التي سيقع عليها الاختيار.. لذلك قاومي بكل ما لديكِ من قوة.. أعلم أن فتاتي الصغيرة أقوى وإن الحُب الذي بداخل روحها أكبر من أي سحر.. أطلقي العنان لروحك وحرري قلبك يا صغيرتي.. حرري قلبك.

لأستيقظ مذعورة.. أنا لم أمت!

أمي أوهمتني بذلك ولكنها أرتني حقيقة مُحب أيضًا.. لكن ماذا تعني أنني لن أكون أنا من سيقع عليه الاختيار؟!



وكيف أحرر قلبي؟!

ركضت إلى يمَّان وأنا أقص عليه الحلم ليقول لي إنها «رؤيا» وليست مُجرد حلم.. أخبرني أن أمي معي ولم تتركني قَط.. شعرت بالسكينة من حروفه ولكنني تذكرت مجددًا أنني لن أكون أنا من سيقع عليه الاختيار لأسأله:

-قالت لي أمي إنني لست أنا من سيقع عليه الاختيار.. ماذا يعني ذلك؟!

ليرتشف قهوته وهو يدخن ليخبرني من بين دخانه وكأنه يختبئ بداخله:

-يعني أنني إيروس وليس أنتِ..

-كيف؟! مستحيل!!

-بلى، لم أخبرك قط أنني مهووس بالنحت، وأن ذلك أكثر ما أعجبني في الجاليري الخاص بكِ، ولكنني أتذكر أنني أخبرتك أنني على أتم الاستعداد أن أموت من أجلك.

لأقول وأنا أضع يديَّ فوق أذني وكأني إن منعت سمعي ستختفي الحقيقة وأنا أهمس: لا، لا، لا، لا..

وكأنني رجعت طفلة مجددًا كُل ما أعلمه من اللغة هما حرفان وأقولهما طوال الوقت عن كُل شيء.

ثم تذكرت أمي وهي تقول: حرري قلبك، المفتاح.. ومالك حين أخبرني يومًا أنه مفتاح كل القلوب.



تركت يمَّان وأنا أركض لمالك حتى وجدته لأقول له دون تفكير: إنت الوحيد اللي تقدر تساعدني إن يمَّان ميموتش!

لينظر لي بعدم فهم ثم أُكمل:

الرؤيا، أنت كتبت شيئًا عن الرؤيا من قبل.. حلمت بأمي تخبرني «حرري قلبك» ثم قالت: «فكري ماذا لديكِ وليس لديها لتغلبيها به».. منذ استيقظت وأنا أفكر ماذا لدي وليس لديها!

أنا لدي يمَّان وهي لديها إيروس..

ليغمض عينيه وكأنه أصابته سهام حروفي لأكمل:

أنا لدي جميلة وهي لديها وصيفات..

هي فقدت أمها وأنا فقدت أمي..

هي لديها أب ملك يشن الحملات دومًا وأنا أبي مشغول دائمًا..

نحن الاثنتان لدينا نفس الألم، نفس الوحدة، ولكنني لدي أنت!

هي لم يكن لديها نظيرك، لم يحبها شخص دون أن يؤذيها، شخص حين علم أنها ستموت ركض إليها حتى لا يتركها وحيدة.. شخص أحبها فقط لكونها هي دون أن ينتظر منها أي شيء، ولكن أنت هُنا لتكون معي رغم كُل



ما مررنا به.. مالك أنا أحبك كثيرًا وأنت تعلم أن مكانك بداخلي لم يمسسه بشر سواك، ولكنني واقعة في عشق يمّان، أنت الوحيد الذي تستطيع أن تساعدني، وهذه هي الثغرة.. إنها تجعل المعادلة بها فتاة ورجلان، رجل واقع بالعشق وفتاة ستموت ورجل موشوم أو العكس، الثغرة هي استحالة جمعكم، لأننا بفطرتنا كبشر كم سنرغب لو يموت عدونا!.. هل سننقذ من نظن أنه يحتل مكاننا أبدًا؟ مستحيل.. هي راهنت على فطرة البشر فقط لأنها لم تعرفك أبدًا!

ثم وجدتُ صوت عم مُحب وهو يقول:

أنتِ حادة الذكاء، مثلها!

لأقول له بنبرة غضب:

قال لي صديقي يومًا: «الذكاء ما هو إلا وليد غباء سابق».. وثقت بك ولكنها حين أخبرتك أنها ستعيد لك زوجتك صدقتها ولكنها لن تفعل!

-من أين علمتِ؟!

-لا يهم ولكنها قالت: «كم يصبح الشخص غبيًّا إن وقع بالعشق! يضحي بكُل شيء من أجل وهم!».. أنت في نظرها مجرد غبي آخر يحقق لها ما تريده..

لينظر لمالك ويقول وكأنه ينتقم:



أنت نظير «أريس».. إنه أحب آيديا كثيرًا، كان ساحرًا قويًّا.. هو من علمها كُل شيء، وحين وقع في عشقها بعد موت إيروس وعلم أنها ستنفذ تلك التعويذة القاتلة تخلى عنها.. لا أعلم هل لغيرته من حبها له أم أنه كان يعلم أن تعويذة بتلك القوة مصيرها الهلاك.. أنت نظيره الجيد –أظن-..

ليقول مالك وهو يضع يديه على رأسه وكأن كُل ذلك أكبر مما يستطيع استيعابه في يوم واحد:

هل تتذكرين المفتاح؟، رأيته حين وجدتك متشبثة بيديه.. المفتاح هو الفراغ بين الوشمين.. لذلك أظن أنه يجب عليكما أن تتمسكا بأيدي بعضكما البعض حين يحين الوقت، كُنت سأخبرك بكل الأحوال.. لا تقلقي..

ليقول عم مُحب:

أنت يا مالك نظير الأرض، ورؤى نظير الشمس، ويمان نظير القمر.. هو من سيكون في خطر؛ ولذلك يجب أن تقف بينهما.. أنت توازنهما.

لأقول: هل ستجدي تلك الخدعة؟

ليقول عم مُحب:

سأفعل المستحيل حتى تُجدي.. أعدك، لن أفقدكم اليوم!



يمان

سألني منير: «ما تعريف الحب لدى آيديا؟!»..

نعم هذا ما لم نفكر فيه، من المؤكد أن آيديا لطالما شعرت بالوحدة والحزن رغم كونها وريثة العرش وفتاة في غاية الجمال، ولكن روحها كانت مُعذبة.. كانت ملعونة بالفقدان، فقدت أمها، وفقدت كُل من أحبته، حتى إيروس فقدته؛ ولذلك أظنها فقدت عقلها.. هي ليست سيئة على الإطلاق، هي فقط تحتاج لدليل على وجود الحُب والتسامح والرحمة.. رُبما هي تحتاج فقط أن يحبها أحد!

قطع تفكيري صوت رؤى وهي تركض ومعها مالك وهو يحدثني، وكلاهما يتحدثان بسرعة مهولة تشوش عقلي الذي يصرخ بسؤال منير لنجد جميلة قادمة وهي تحمل الكثير من المؤن؛ الطعام والشراب، ولا نجد أنفسنا إلا نضحك.. فبالطبع هي لا تعلم كُل شيء، ولا تفقه شيئًا عن حقيقة موتي الحتمي بعد دقائق من الآن حسب وكالة ناسا..

وما هي إلا ثوانٍ حتى قطعت حديثَنا جميعًا أعاصيرُ



من الرمال، رعد وبرق ومطر، والنيل يتخبط وكأنه فقد ماهيته وتحول لبحر مؤقتًا.. بدأ القمر في الاقتراب من قرص الشمس، صرخت جميلة وهي لا تستوعب شيئًا مما يحدث، أمسك مالك بيدي!.. نظرت له بتعجب فقال لي:

«أنت مدين لي.. عندما ينتهي هذا سأخبرك بدَيْنك»..

لأنظر له في عدم استيعاب وإذ به يمسك بيديَّ بقوة لا أعلم هل قوة صديق أم كُره عدو، ولكن نظرت لي رؤى في محاولةٍ منها لبث الاطمئنان.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا بيدي المتحررة من مالك أضمها لصدري وأهمس لها:

إن كُنت سأموت، فأريد أن أموت وأنا أشم رائحتك ودقات قلبك تتصارع وتتخبط بقفصي الصدري، إن كُنت سأموت فأريد أن أمرر يدي بين خصلات شعرك الذي لطالما جعلني أجن، أريد أن أستعين بنبضك على الفراق، أريد أن أتشرب ابتسامتك، أن أستأصل قناتك الدمعية معي حتى لا تبكي بعدي أبدًا.. لا تحزني؛ فالحُب قدره الخيبة، ولكن ما أشهى الموت بين ضلوعك جميلتي!

يزداد البرق والرعد، ويكاد يغرقنا النيل والمطر، أمسك مالك بيديَّ جيدًا ولم يفلتهما وهو يجد صعوبة لا أعلم هل لآيديا دور في ذلك أم لحقيقة أن حبيبته بين ضلوعي الآن.. ما أنبله! ولكن إن كانت هذه آخر لحظاتي



على الأرض فلن أتخلى عن ضلوعها أبدًا، أمسكت رؤى يديَّ، وأمسكت يد مالك، وصرخنا معًا في ذات اللحظة وكأن أرواحنا تنازع لتبقى داخل أجسادنا، خارت قوانا ثلاثتنا..

ولكن حدث ما لم نتوقعه!

وجدنا جميلة تضمنا ثلاثتنا وهي تصرخ معنا دون أن تفهم لماذا نصرخ، ولكن ما لاحظته أننا استرددنا بعضًا من قوتنا، ليأتي بعدها منير ويحتضنني من الخلف لأشعر بنفسي في أقوى حالاتي.. قوة لم أكن بها حتى من قبل، رُبما منير هو نظير داريوس.. داريوس كان صديق إيروس ولكنه سبب موته، أما مُنير فهو سيكون سبب بقائي على قيد الحياة.. صوت منير وهو يبكي ويقول: «لا يفلُّ الحديد إلا الحديد، ولا يغلب الحُب إلا الحُب» ورؤى صامتة بين ضلوعي وكأنها توهم نفسها أنه مُجرد كابوس وستفيق منه، ومالك الذي يحكم الإطباق على يدي، وجميلة التي تمسك مالك وكأنه كُل ما تبقى لها في الحياة.

أعتقد أن كُل الموشومين السابقين لم يفهموا معنى الحُب الحقيقي، الحُب الذي ليس هو فقط بين الحبيب والحبيبة؛ بل أيضًا بين الأصدقاء والأهل.. الحُب العذري الطاهر، والحُب الشهواني، والحُب الفطري.. رُبما كانت



هذه الثغرة الحقيقية: الحُب.

شعرت بصاعقة..

لا أعلم هل شعرت بها وحدي أم جميعنا، ولكنني كُنت مع آيديا وإيروس.. كُنت في عالم غريب لم أزره من قبل، رأيتهما.. رأيتها تبكي وتجلس أرضًا، ووجدته قادمًا نحوها وكأنها لم تره منذ فترة رُبما!

وحين رأته قفزت عليه، ظلت تبكي وتصرخ وهي تنطق اسمه وهو يقول لها: «أنا هُنا، لا بأس»..

بقيا هكذا لمدة لا أعلمها، ولا أعلم لماذا أنا هُنا.. هل مُت؟!

قالت له: لم أستطع أن أهزمهم!

لأبتسم، إذًا أنا لستُ ميتًا.. ولكن أين أنا؟ ولماذا أنا هُنا؟!

ليقول لها إيروس:

-بلى، أنا هُنا الآن.. أليس هذا غرضك؟ كانت تلك اللعنة تحول بيني وبينك، الآن هي اختفت وأنا هُنا..

لتقول في عدم استيعاب:

-ولكنني رغبت أن نكون معًا للأبد!

ليقول:

-خدعتك أمك، فلم يكن أنا الطرف الآخر للتعويذة بل



هي.. كانت تمنعني من رؤيتك حتى لا أخبرك.. كان لديها أمل أن تعود للحياة مجددًا لتنتقم من أبيكِ، أما نحن هُنا فمُخلدان للأبد.. ماذا نفعل في أرض فانية إذ كُنا نستطيع أن نكون هُنا معًا للأبد وحتى ينتهي الأبد؟!

لتقول وكأنها طفلة تخطت خيبتها في ثوانٍ وتعدها أمها بالحلوى:

لن تتركني؟

ليقول: أبدًا، سأبقى معكِ إلى الـ (ما لا نهاية).

ثم استيقظتُ ذعرًا..

لأفيق وأجد نفسي في الجاليري وحولي الكثير من الخلق، وأمامي رؤى وهي تقول:

وكانت تلك قصة هذه اللوحة..

لأتأملها وأجد اسمها:

QU'EST-CE QUE L'AMOUR

وأجد بداخلها آيديا وإيروس والكوخ وحولهما نار، وبجانبٍ آخر كومة من الخلق يحتضن بعضهم بعضًا والعالم ينتهي من حولهم وكأنهم كُل ما يحتاجانه لينجوا.. بقيت أتأمل كُل هذا ولا أعلم هل كان هذا وهمًا أم أنه الحقيقة.. بقيت أتأمل كل التفاصيل، وأتذكر حقيقة أنني عشتها، ثم تقترب مني رؤى وعلى يدها الوشم المشهور



وهي تبتسم للزوار، فأقترب منها وأنا أقول: وقعتُ بعشق تفاصيل لوحتك.

لأقول: اسمي يمّان..

وأمد يديَّ وكأنني أشتاق للمس يديها..

لتقول: رؤى العابد..

وتبتسم وهي تلمس يديَّ، ثم يحدث أغرب ما يُمكن أن يحدث!

إلى الـ (ما لا نهاية)..

تمت